نوع من العلاقة. إلا إذا لم أكن أتعلق بهذه الفكرة كذريعة لمحاولة أن أبـرِّر إزاء عيني ما لا يقبل التبرير.. ولكنني، لست أدري.. قلتَ كلمة «مظلم» حين تحدثتَ عن أولئك الفتيان، الذئاب الذين ينتمون إلى عالم آخر لا اتصال بيننا وبينه... وأنا أقول: ظلمات... ظلمات... ظلمات... هذا هو العنصر الذي أغوص فيه.

مارك – أندريه : إذن، فأنت تريد أن تقول، يا عمي، إنه قد كان من الأشجع؟...

بسكال : (في حزن عميق) لم أعد أعرف إطلاقا في أي جانب توجد الشجاعة. ولعل هذا هو أسوأ ما اجتازه الآن...

يا بني، أقسم لك على أن افتقاري إلى الإيمان لم أحسه قط بمثل هذه القسوة، فلو أنني كنت مرتبطا، مرتبطا بالمسيح، فلعل شيئا من النور يوهب لي، وأنا لا أبصر شيئا.

(الفصل الثالث – المنظر الثالث)

والمسرحية تتناول موضوعات شتى، بيد أن محورها الأساسي الذي يدور عليه كل شـيء فيها وبؤرتها المركزية التي تضيء كل شيء فيها هما ضمير «بسكال لومبير». ومن الواضح أن الأزمة الحقيقية التي يعانيها هذا الضمير هي عجزه عن التحرر من ضرب من الهَوَس الفلسفي الذي ينأى به عن الفطرة الصحية السليمة.

* * *

روما لم تعد في روما

مسرحية من خمسة فصول

تأليف:

جبرييل مارسل

ترجمة وتقديم:

فـؤاد كـامـل

مراجعة:

محمد إسماعيل محمد

العنوان الأصلي للمسرحية

GABRIEL MARCEL

ROME N'EST PLUS DANS ROME

Pièce en cinq actes

LA TABLE RONDE

8 RUE GARANCIERE 6

PARIS

إهداء

إلى جاك هيبيرتو، مع عرفاني الودي بجميله.

شخصيات المسرحية

بسكال لوميير	Pascal Laumière
مارك – أندريه	Marc – André
روبير فيلار	Robert Velars
أولريش شتاينبوك	Ulrich Steinboc
كارلوس	Carlos
الأب ريكاردو	Padre Ricardo
شفرمون	Chevremont
رينيه لوميير	Renée Laumière
أستير بيرول	Esther Peyroll
إينيس	Ines

عُرضت مسرحية «روما لم تعد في روما» أول مرة في ١٩ أبريل ١٩٥١، على مسرح هيبيرتو، إخراج جان فرنييه Jean Vernier، وديكور مونكورلييه Moncorlier.

الفصل الأول

في منزل آل لومبير، خلال شتاء ١٩٥١. داخل المنزل ينم عن مثقف ميسور الحال، فثمة كتب كثيرة، وبعض النسخ الملونة من لوحات حديثة.

المنظر الأول

رينيه، وإستير، وأولريش

أولريش : (مخاطبا إستير في شيء من الحدة) ولكن، يا له من خطأ، يا سـيدتي! يا له من خطأ! أستطيع أن أؤكد لك أن الحياة فـي برلين كانت في تلك الآونـة، ممتعة تماما.. أعني قبل وصول الخنزير - كما هو مفهوم - بكل أدواته الهتلرية.

إستير : أما أنا، فأعتقد أنه حتى في تلك الفترة التي تتحدث عنها، كانت الأحداث السياسية مثيرة للانزعاج فعلا.

أولريش : كلا، يا سـيدتي، كان السـفهاء وحدهم هم الذين يهتمون بالسياسة.

إستير : ألم يكن ذلك من سوء الحظ؟

أولريش : وكيف يكون من سوء الحظ، وفي فرنسا يهتم الناس جميعا بالسياسة.

وها أنت ترين النتيجة! المسـارح يا سيدتي، والموسيقى، بوجه خاص.. وعلب الليل التي تحدثوا عنها عندكم، في غير إنصاف. أما نحن، فقد كنا نقطن حيا كل ما فيه أشياء منتقاة.

رينيه : لعلة «وانسي»؟

رينيه : لعله حي «وانسي؟

أولريش : (مبتهجـا) أتعرفين وانسـي يا سـيدتي؟ كلا. لم يكن هو بالضبط، بـل أبعد منه كثيرا. وكانت هنـاك أيضا بحيرة صغيـرة، تتألـق وراء أشـجار الصنوبر، وعليها يسـتقل

الناس الزوارق في الموسم الجميل... وفي أيام الآحاد كان أصدقاؤنا يأتون لزيارتنا، وهناك تدور مناقشات خرافية، حول كل الموضوعات الجمالية على الأخص.. هذا شيء لن يعود – يا سيدتي – لا هنا ولا في أي مكان آخر. كوني من ذلك على يقين..

إستير : كل هذه الثقافة التي تزهو بها، لم تمنع وقوع الكارثة، ألم تكن سطحية إذن؟

أولريش : إني ارتاب ارتيابا شديدا بكل ما هو عميق يا سيدتي. وربما كان العمق خاصية ألمانية، خاصية تعسة إلى أبعد حد.

رينيه : لست أدري لماذا تسمح أختي لنفسها بأن تناقضك على هذا النحو.

(إلى إستير) إنك لم تعيشي قط في برلين، أو حتى في ألمانيا.

أولريش : من سوء حظك يا سيدتي، بكل تأكيد.

إستير : هذا شيء ما أيسر عزائي عنه.

رينيه : ماذا جرى لك يا إستير!

أولريش : (ناهضا) لا أريد – يا سيدتي – أن أطيل هذه الزيارة التي ربما لم تكن مستحبة. ولنعد إلى الموضوع الذي حملني إليكم اليوم...

رينيه : أجل، سأسأل زوجي عند عودته، إن كان يعرف أحدا في الرباط، أو في الدار البيضاء.

أولريش : من المفهوم أنها ليست سوى خطوة.. فأنا لا أضع في حسباني أن أقيم إلى الأبد في مراكش، وهناك – وهذا شيء بيننا – طبقة من البروليتاريا ستكون مرتعا خصبا للمهيِّجين الشيوعيين، ولهذا لا أحب أن أكون في مكان الأوروبيين في تلك البلاد حين يحدث الانفجار.

إستير : أجل، من المفهوم أنك لا تشغل بالك...

أولريش : أوه! كلا، فلست مطية، وهذا أمر أعلنه لك، صراحة.

إستير : كنا مقتنعين بذلك.

رينيه : وما دخل «المطية» في هذا الموضوع؟ من البديهي أن يتخذ المرء احتياطاته في الوقت المناسب، إذا أتيحت له الإمكانية. أنت على صواب تام، يا سيدي.

إستير : أعترف بأن المسألة بالنسبة إلى المستَأصَلين...

أولريش : نحن جميعا مستأصَلون، وأنتم أيضا مستأصلون.. أنتم يا من تؤلفون الطبقة البورجوازية في باريس.

إستير : كلا، يا سيدي، نحن هنا بين أهلنا، ووسط إخوتنا.

أولريش : ومن هم إخوتك!

إستير : الفرنسيون، بكل بساطة.

أولريش : وأين هي فرنسا؟ لا أحد يدري على وجه الدقة.. ثم، لو سمحت لي بأن أبْدي هذه الملاحظة، وهي أنني لا أراك من ذلك الطراز. أأنت شقيقة السيدة لومبيير؟ لا يكاد المرء يقطع بذلك.

إستير : كانت أمي أنا يهودية بولندية.

أولريش : إليك مصداقَ قولي.

إستير : واغتال قومك زوجي، وأنا آمرك بالخروج.

رينيه : ولكنك، لست في بيتك، يا إستير! أتفق معك في أن السيد قد تجاوز حدود اللياقة، ولكن ينبغي القول بأنك من جانبك...

أولريش : ليس من عادتي أن أفرض نفسي. كل ما أطلبه منك هو أن أذكّرك..

إستير : سيعلم زوج أختي من تكون، وأتعهد بأن أوضح له.

أولريش : أما هو، فليس يهوديا، على ما أعلم... وداعا يا سيدتي. (يخرج)

المنظر الثاني

رينيه، وإستير

إستير : يا له من شخص وضيع! أتفتحين بابك لأمثال هؤلاء الناس؟

رينيه : أنـا، لا أعرفه، لقد ترجم لمجلة ألمانية مقالا لبسكال عن «سانت – إكزبيري».

إستير : هذه الشخصية الدنسة تكتب عن سانت إكز... ؟

رينيه : ما علينا، ما علينا.. أنت تبالغين، إنك أنت التي فقدت هدوء أعصابك.

إستير : لنتحدث عن شيء آخر، أتسمحين؟ متى يعود بسكال؟ لديّ بضع كلمات أودُّ أن أقولها له.

رينيه : لست أدري. لا بد أنه في «نادي بن». أهو أمر عاجل؟

إستير : أجل. إنه يتعلق بمارك – أندريه.

رينيه : الواقع أن مارك – أندريه طلب الحضور لمحادثة بسكال عقب العشاء.

إستير : وأريد رؤية بسكال بالضرورة قبل ذلك.

رينيه : كل هذا يكتنفه الغموض. (صمت)

إستير : سيطلعك بسكال على كل شيء، إن رأى ذلك، ولكنني أعترف بأن هذا سيكون مثار دهشتي.

رينيه : أنت غريبة الأطوار يا إستير، أتعرفين..؟

إستير : غريبة الأطوار؟ في أي شيء؟

رينيه : لا بد أنك أخذت ذلك عن والدتك... فلم يكن أبي قط على هذا النحو. تظهر عليه علامات الشيخوخة بكثرة في هذه الأيام الأخيرة، ألا ترين ذلك؟

إستير : لا أستطيع أن أفكر فيه على خلاف ما كنت أفكر في الماضي. لقد فقدناه فعلا.

رينيه : لا أرى ذلك. فلكي نفقده، لا بد أن نكون قد ملكناه.

إستير : يا لها من كلمة بشعة!

رينيه : إنه لم يكن قط جزءا من حياتي. أما بالنسبة إلى أمي، فنعم، الأمر يختلف.. وتعرفين أنها مازالت تستطيع أن تكون مسلية على التليفون!

إستير : إنها تقضي حياتها عليه.

رينيه : ضعي نفسك مكانها. إن التهابها الرئوي المزمن ألزمها البقاء في المنزل، والقراءة ترهق عينيها. ولا نستطيع أن نطلب منها في الوقت نفسه أن تضع نظارة.

إستير : لماذا؟ للحقيقة لاحظت أنني سأنسى إعطاءك هذا الخطاب، ناولتْني إياه البوابة حين مررتُ على غرفتها.. خطاب بالبريد الجوي.

رينيه : (في لهفة محمومة) هاتيه.. يا إلهي، إنه من كارلوس!

(تفض الخطاب، تقرؤه، ثم تنفجر باكية)

إستير : ولكن، ماذا أصابك يا رينيه؟ خبر سيئ؟

رينيه : على العكس، شيء مقطوع الرجاء.. إنه.. آه! ولكن الله تولانا برحمته.

إستير : والخلاصة، ماذا جرى لكم؟

رينيه : (وهي تناولها الخطاب) تستطيعين قراءته.. الخلاص، يا إلهي، الخلاص...

إستير : (تقرأ) سان فيليب.. جامعة جديدة.. ما هذا؟

رينيه : ولكنني لا أعرف عنها شيئا، ماذا يمكن أن يصنع ذلك بي؟ كرسي الأدب الفرنسي... على بعد ١٥٠٠ كيلومتر من ريو.. أتفهمين معنى ذلك؟

إستير : أأنت التي كتبت إلى أصدقائك؟

رينيه : بكل تأكيد.. أتذكرين، منذ ثلاثة أشهر تلقى بسكال خطابا غُفلا من التوقيع.

«الشيوعيون قادمون. وأنت في قائمة أولئك الذين ينبغي ترحيلهم. اتخذ احتياطاتك».

إستير : غير أن بسكال لم يأخذ ذلك مأخذ الجد. ولا أنا أيضا.. مجرد مزاح.. سخيف، هذا ما أوافقك عليه..

رينيه : مزاح! ماذا تعرفين عن هذا الأمر؟ وتقولين إن بسكال لم يأخذه مأخذ الجد... أما أنا فأستطيع أن أؤكد لك أنه أمضى عدة ليال مسهدا.. واستهلك أنبوبتين من «السونيريل» في أسبوع واحد.. هكذا!.. كل ما في الأمر أنه أخذ يتظاهر في أثناء الحديث بأن المسألة مجرد هزل. وجاز عليك تظاهره.

إستير : هل علم أنك تكاتبين أصدقاءك هناك؟

رينيه : كلا.. وإلا، لكان قادرا على المعارضة.. من قبيل «الاعتزاز بالنفس».. وحتى لا يبدو في مظهر الخوف.

إستير : هل أنت مقتنعة بأنه سيفوِّت هذا العرض؟

رينيه : من الواضح أنه لن يفعل ذلك، لن يفوِّته. ولكنه سيجد وسيلة يرغم بها يده على التوقيع. أولا، فيما يتعلق بي أنا، المسألة غاية في البساطة، فأنا لم أعد أطيق هذا الجو الذي نعيش فيه منذ شهور.. قراءة الصحف. الأحاديث...

إستير : لست مرغمة على قراءة الصحف.

رينيه : لا أستطيع المخاطرة بأن أبدو بلهاء أمام أصدقائي.

إستير : لا أهمية لرأي الناس.

رينيه : ولكن، أي إستير المسكينة، إنك تعيشين حبيسة ذكرياتك وكتبك، ولا ترين أحدا.. سوى مارك – أندريه.

إستير : (في صوت متهدج) فلندع مارك – أندريه جانبا، من فضلك؟

رينيه : لماذا؟ ها هو السر الذي يبدأ من جديد!

إستير : أزعم أنني أعرف بسكال جيدا بقدر ما تعرفينه، بل أفضل مما تعرفينه من بعض الوجوه، ولست واثقة على الإطلاق بأنه سيرضى بأن يرغم على قبول ذلك الاقتراح.

رينيه : ليس من ذلك بد.

إستير : كيف؟

رينيه : ليس من ذلك بد. ولن يكون له الخيار.

إستير : لك طريقتك الخاصة في النظر إلى التزاماتك.

رينيه : أي التزامات؟ صمم بسكال من دون أن يطلب منه أحد، وضد تعهده الصريح لي على كتابة سلسلة من المقالات عن التطهير في مجلة أسبوعية للقانون، مما جعله العدو الرقم واحد في نظر الشيوعيين.

إستير : العدو الرقم واحد! أنت تغالين.

رينيه : كانت حماقة. لأن هذا التصرف لم ينقذ رأسا واحدا، ولم يؤخر ما حدث يوما واحدا.. كان ذلك لكي يرضي نفسه فقط. أجل، هذا ترف منحه لنفسه. جميل! واليوم، عليه أن يدفع الثمن.

إستير : تتحدثين كما يتحدث خصومُه.

رينيه : لا يوجد سوانا، والأطفال قبل كل شيء. ألا تفهمين؟

إستير : أوه! بلى.. تمام الفهم.

رينيه : أما أنت، فقد احتفظت بعقلية زوجك المسكين في أثناء الاحتلال. وحين يفكر المرء في أن إيمانويل كان يستطيع أن يبقى هادئا معكم في الجزائر، بل كان ينبغي أن يضطلع بمهمة، لا يعلم علمها إلا الله.

إستير : كفى، يا رينيه.

رينيه : هذا ضرب من المرض! مرض عقلي. ينبغي أن أتحدث عنه إلى الأستاذ تيرسلييه Tiercelier. إنه نابغة. وعلى التحليل

النفسي أن يقول كلمته أيضا عن هذه الاختلالات.. حسن، ألا يكفيك أن كان لك زوج مات في المنفى.. مات من أجل لاشيء، أقول من أجل لاشيء. لأننا نرى الآن جيدا أن كل هذا لم تكن له أدنى فائدة، بل مهّد الطريق للشيوعيين.. والحقيقة، أنني أريد أن أقول لك.. إنك لا تتحملين – على سبيل الحسد والحقد – أن أُفْلِت من هذا المصير، على حين أنك لم تفلتي منه.. هذا شيء لا اسم له.

المنظر الثالث

الشخصان أنفسهما، وبسكال

بسكال : ماذا يجري هنا؟

إستير : موضوع المناقشة الأبدي يُطْرح من جديد على بساط البحث. ورينيه تعود إلى هجومها المعتاد على المقاومة.

بسكال : ليست هذه هي اللحظة المناسبة حقا. وأنت يا عزيزتي رينيه، لم يكن لديك قط أي إحساس بالانتهازية.

رينيه : وبمناسبة الانتهازية أنصحك بأن تتكلم!

إستير : ماذا جرى في «نادي بن»؟

بسكال : كانوا يستقبلون روائيا من أستونيا لا يتحدث الفرنسية، ولم يكن أحد قد قرأ له سطرا واحدا، فكان مشهدا مثيرا!

إستير : حقيقةً.

بسكال : كان الرجل يبدو جذابا إلى أبعد حد.. وأعطاني ترجمة ألمانية لكتاب من كتبه الرئيسية.

رينيه : خُيل إليه أن لديك وقتا تضيعه!

بسكال : ومن أنبأك أنه سيكون وقتا ضائعا؟ قرأت مقالات نقدية ممتازة في المجلات السويسرية – الألمانية.

رينيه : على أنها مراجع!

بسكال : (بغلظة) بأيّ صفة تحكمين عليها!

رينيه : أوثر الانصراف. سأحضر الأطفال الذين ذهبوا لتناول شيء من الطعام عند ماري بلانش. (بصوت خافت إلى إستير) لا تشيري بكلمة – على وجه الخصوص – إلى الخطاب. إلى اللقاء.

(تخرج)

المنظر الرابع

بسكال، وإستير

بسكال : إن رينيه تشغل بالي في هذه الأيام الأخيرة. كانت دائما بعيدة عن الاستقرار، وهذا ما تعلمينه جيدا، ولكنها منذ بضعة أيام، عندما لا يثيرها انفعال شديد، تجتاز لحظات من الكآبة، تخيفني. وربما كان من واجبي ألا أبقيها في باريس. ساءلت نفسي: ألا ينبغي أن أجعلها تستقر في الجنوب مع الأولاد؟ أجل بكل تأكيد، هناك دراساتهم.. ولكن، كلما رأيت الوقت الذي يضيعونه على هؤلاء الأطفال المساكين. أتظنين أن روجيه يعمل كل الأمسيات حتى الساعة الحادية عشرة؟ وهو قد بلغ الثانية عشرة منذ قليل. إنه متقدم على سنه، هذا مفهوم، ولكنه في النهاية، أول فصله. إن تعليمنا الثانوي بشع.

إستير : أعرف ذلك جيدا. ولهذا السبب ألحقت مارك – أندريه في الأعوام الأخيرة بمعهد «روش»، ولم يتعلم هناك شيئا عظيما، ولكن، على الرغم من هيئته الهزيلة نوعا ما، فإن صحته جيدة.

بسكال : طلب الحضور ليتحدث معي هذا المساء.

إستير : أعلم ذلك... وهذا هو السبب الذي أحرص من أجله على رؤيتك، يا بسكال. خرج هذا الولد منذ بضعة أسابيع عن طوره بمعنى الكلمة.

بسكال : ماذا تعنين؟

إستير : أنت تعرفه، إنه إنسان لطيف، عاطفي. وكان معي دائما غاية في الرقة. وحين تناهى إلينا خبر وفاة والده، لن تستطيع أن تتصور الرعاية التي أغدقها عليّ، كان يقوم كل ليلة مرتين أو ثلاث مرات ليتأكد من أنني نائمة، وحين التحق بمعهد «روش»، كان يغالب نفسه لكي يمتنع عن الكتابة إليّ يوميا.

بسكال : والآن؟

إستير : عندما يقضي السهرة في المنزل مصادفة يمكث أحيانا ساعة كاملة، من دون أن يوجّه إليّ كلاما. وإذا حدث أن نظر إليّ، جاءت نظرته طافحة بالحقد، بل بالعداء.. بسكال هذا فظيع.

بسكال : ماذا يأخذ عليك؟

إستير : أنني هناك.. أنني موجودة. وقد يخطر لي أن أتمنى الموت لأخلّصه مني.

بسكال : لست أفهم.

إستير : وأنا لست واثقة من الفهم يا بسكال، ولكن يبدو أنني أمثل في نظره ماضيا يريد أن يقطع به كل صلة، لكي يلقي بنفسه كليّة في ذلك الضرب من المغامرة الهائلة المخيفة التي ابتلعت كل أصدقائه الواحد وراء الآخر: «برتراند كان»، «جاك فيل»، «أوليفييه موريزو». إنهم جميعا شيوعيون، ويقوم أوليفييه بتوزيع «الأومانيتيه» يوم الأحد على بوابة ضاحية فانف(*).

(*) ضاحية في الجنوب الغربي من باريس.

بسكال : أتعتقدين أن مارك – أندريه يحسدهم؟

إستير : ليست المسألة بهذه البساطة. فكل هذا يفزعه، ولكنه يؤمن به، وهو على ثقة من أن هذا سيحدث قريبا، وأننا سنُبتلع، وسيلتهمنا ذلك الضرب من العاصفة. وهو لا يحتمل فكرة أنه سيكون ضحية، ويرفضها، ولكن، في الوقت نفسه، ربما لأنني موجودة، بكل ما أمثله في عينيه، فإنه لا يحس بإمكانية الانتقال إلى المعسكر الآخر. وهو لا يعترف بحقه في ذلك، أو لعله لا يملك القوة... وإني على يقين بأنه يضني نفسه حين يتصور حانقا ما أفكر فيه، وما أتمناه، وما أشعر به. وهذا النوع من التعهد الذي وصفته منذ لحظة – أي بسكال – يخلو من كل معنى.. ولو أنني اختفيت مصادفة...

بسكال : تقولين مصادفة؟

إستير : أوه، أجل، مصادفة!.. لن يكون ذلك خلاصا بالنسبة إليه.. بل سيعذبه تأنيب الضمير، وليست لدي القدرة على أن أقيده وأنا ميتة، كما أقيّده وأنا حية.

بسكال : إذن؟

إستير : إنه يختنق، وأنا أيضا أختنق.

بسكال : (بصوت خفيض) أليست المسألة ببساطة أنه خائف مثل رينيه؟ آه لو تعلمين كم هي أيضا!

إستير : رينيه ... ولكن الأمر مختلف.

بسكال : أما أنا، فأعتقد – يا إستير – أنه في الحالتين واحد بالضبط. إنه أشبه بدرجة الحرارة أو بضغط شديد جدا.. حينئذ تنفجر الأوعية.

إستير : وعلى هذا، لا تستطيع الإرادة أن تفعل شيئا؟

بسكال : أشك – في الواقع – أن يكون لها في النفوس الضعيفة أدنى تحكّم.. ولكن، لماذا يحرص مارك – أندريه على التحدث إليّ؟

إستير : لست أدري بالضبط، إنه يكن لك الحب والاحترام.

بسكال : الاحترام! يا لها من كلمة سنة ١٩٥١!

إستير : أنت الرجل الوحيد في الأسرة. ومع روبير...

بسكال : (متألما) أجل، روبير...

إستير : أساء إليه روبير كثيرا.

بسكال : أخوك مخلوق خطر، يا إستير. أدركت ذلك منذ أمد بعيد. وبمنّة غير مفهومة من الظروف وجد نفسه موضوعا في ظروف يُمَكِّنها أن تنمي قدرته الشريرة خير تنمية.

إستير : تنطق كلمات رهيبة، يا بسكال.

بسكال : أتدركين ماذا تعني عودته من المنفى... بالنسبة إلى روبير وبالنسبة إلى مكانته؟

إستير : أجل، أعرف.

بسكال : إنه غريب كل الغرابة... ذلك المسكين إيمانويل...

إستير : إنه هو الذي فكّرت فيه.

بسكال : لو أن زوجك قد عاد، فنحن نعرف جيدا، أنا وأنت، أنه لن يحمل معه سوى السلام، نوعا من العزاء الغريب..

إستير : (في صوت خفيض) أجل.

بسكال : أعدت قراءة شهادة زملائه في نوينجام عشر مرات. عاش هناك مثلما يحيا القديس، ومات كما يموت القديس.

إستير : لماذا لا يرجع في الغالب إلا الآخرون.. أولئك الذين لم يتعلموا سوى الحقد، ولم يجمعوا سوى الحقد! أمن الممكن تفسير هذا؟

بسكال : ليس من الممكن تفسيره، يا إستير، ولكن ربما كان من الممكن فهمه. فيما وراء الكلمات.

إستير : أهذا صحيح؟.. كلا، أنا لم أفهم جيدا... لعلك تضع نفسك على مستوى صوفي؟

بسكال : هذه كلمة كبيرة حقا. وأستطيع أن أؤكد لك أنني لم أدخل قط في أي تجربة مباشرة مع الرب. بل لست واثقا بأنني مؤمن به.. ولكنني على يقين من أن هناك ميتات مشمولة بالرحمة.. ميتات من قبيل اللطف الإلهي.

إستير : أليس لكل إنسان الحق في موته؟

بسكال : إستير يا مسكينة، ليس لأحد الحق في أي شيء.
(صمت)

إستير : (في حزن عميق) ربما.. قد لا نتحدث، بعد زمن قصير، اللغة نفسها.. بسكال، آه لو تعلم كم يتولاني الشعور بالوحدة!

بسكال : اعلمي – إن كان في هذا ما يعزيك – أنني وحيد أشد الوحدة، أنا أيضا.

إستير : هذا لا يعزّيني، بل على العكس، إنه هَمٌّ جديد يضاف إلى همومي. (صمت)

بسكال : لنعد إلى مارك – أندريه، أتعتقدين أن لأخيك تأثيرا فيه؟

إستير : إنه يبعث في نفسه القلق، هذا مؤكد. ومارك – أندريه لا يحبه، ولكنه يخشى من سخريته، ومن ابتساماته المزدرية، ومن توكيداته التي لا تقبل المراجعة. بسكال، لو استطعت على الأقل – لست أدري – أن تحصنّه ضد...

بسكال : إنني لم أكن منفيا، ولست شيوعيا، وليست السخرية من مواهبي.. ألديك أي فكرة عما يمكن أن يطلبه مني؟

إستير : التوجيه، بكل بساطة.. وما أطلبه منك قبل كل شيء هو أن تترفق به.. إنه طفل تعس كل التعاسة، ولاسيما منذ أن امتنع عن مكاشفتي بأسراره... وسأدهشك يا صديقي.. إنني نادمة لأنه لم يتخذ له عشيقة.

بسكال : وهل يمكن أن تكوني واثقة بذلك؟

إستير : إني مقتنعة بذلك. فقد عذبتني طويلا فكرة أن أتقاسمه مع غيري، ولكنني أقسم لك على أن هذه الفكرة الأنانية قد فارقتني.. وأنا على ثقة بأن العفة بالنسبة إلى شخص مثله تُعَدّ شرا... ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل؟

بسكال : أي إستير المسكينة، لن تطلبي مني أن أعطيه بعض العناوين؟.. معذرة، فلن أفعل ذلك، ولكن لو تعرفين كيف أشعر بعجزي عن توجيه نفسي فقط؟

إستير : إن حياتك منظمة يا بسكال، وإذا كانت على هذه الحال، فذلك لأنك لم تكف عن أن تريدها كذلك.

بسكال : قد تأتي لحظة نبدأ فيها نقاسي من هذا النظام، لأننا لم نعد نبدعه.. فمن الممكن أن تتخذ العبودية أشكالا كثيرة! فمنها ما هو محترم شديد الزخرف والزينة.. والحقيقة يا عزيزتي إستير، هي أنني حزين إلى درجة الموت.. وأنا لا أحب نفسي، بل أنفر منها...

إستير : (صائحة) ولكن إذا أنت أحببت نفسك يا بسكال أكنت أنا قد...؟

بسكال : ماذا تريدين قوله؟

إستير : لا شيء لم تعلمه أنت دائما.. (بنبرة مختلفة، تصطنع التعقل) دعك من هذا، لا تتظاهر بالدهشة! لقد أضمرت لك دائما كثيرا من العاطفة، فلا تتظاهر بأنك تكتشف ذلك لأول مرة. وأنت، من جانبك، تحبني.. ولقد برهنت لي على ذلك بما فيه الكفاية! وهذا كله طبيعي جدا. فنحن أناس أسوياء تماما، ليست بينهم غير علاقات سوية.

بسكال : (مرتبكا ارتباكا عميقا) بكل تأكيد.

إستير : ثم إن الاسم الذي يخلعه الناس على مشاعرهم، لا أهمية له، ذلك لأنهم كثيرا ما يخطئون في البطاقة التي يضعونها.

بسكال : أجل.

إستير : إن ما يشغلني، هو ما سوف تقوله لمارك – أندريه.

بسكال : ينبغي أن أسمعه أولا.

إستير : ربما أحس بكثير من الرهبة.

بسكال : أنت تمزحين! فهو نفسه الذي طلب هذا الحوار.

إستير : أتوسل إليك، ألا تدع تلك الدوامة من الشكوك وضروب القلق التي يصارعها تستولي عليك. فهو في حاجة إلى من يحدثه في ثقة، في حزم. هذا ما ينتظره منك.

بسكال : أجل، ولكن، من جانبي، يا إستير...

إستير : إني أسمع صوت رينيه عائدة مع الأطفال. ولن تكون شديدة السرور إن وجدتني مازلت هنا، فنحن نعرفها.

بسكال : طلبتِ مني أن أكون عطوفا على ابنك، ولكن، هل عطفت أنت يا إستير، على رينيه؟

إستير : (في صلابة) كلا، بكل تأكيد، لن أعطف عليها أدنى عطف. إن رينيه من أسعد من عرفت من النساء ومن أكثرهن حظوة في الحياة. فهي تملك كل ما يمكن أن تملكه المرأة: زوجا لاعيب فيه، طفلين جميلين، هي جميلة، وتملك دائما كثيرا من المال، وهذا في نظرها شيء لا يستهان به.

بسكال : إن حساباتك ليست مضبوطة تماما يا إستير.

إستير : وما وجه الخطأ فيها؟

بسكال : راجعيها بعناية، فربما اكتشفت أين يكمن خطؤك.

المنظر الخامس

الأشخاص أنفسهما، ورينيه

رينيه : لم أتوقع أن أراك مازلت هنا. أوه! ليس هذا مَلاما. امكثي للعشاء، إن كان هذا يروقك.

إستير : شكرا، يا رينيه. مارك - أندريه ينتظرني في المنزل.

رينيه : اتصلي به تليفونيا ليحضر إلى هنا هو أيضا، مادمنا ننتظره للسهرة.

إستير : كلا.. أشكرك. لا أحب - بالمرة - هذه اللقاءات المرتجلة. إلى اللقاء.. أرجو عفوك يا بسكال عن كل ما أضعته من وقتك.

بسكال : لا داعي لاعتذارك، فقد كانت هذه المحادثة ضرورية.. إلى لقاء قريب، يا إستير.

(تخرج إستير)

المنظر السادس

رينيه، وبسكال

رينيه : ماذا يمكن أن تكون كل هذه الأسرار؟ أوه! اطمئن، فلن اسألك عن شيء.

بسكال : لا وجود لأدنى سر، كانت أختك تتحدث إليّ عن ابنها.

رينيه : ولماذا في غير حضوري؟

بسكال : تستطيعين الظن بأنه من الأيسر أن يكون الحديث حميما بين اثنين لا بين ثلاثة.

رينيه : ألفت نظرك إلى أننا قضينا وقتا طويلا على انفراد قبل وصولك.

بسكال : لا أعلم إن كان بينكما أي شيء من تلك الصلة الحميمة.

رينيه : نتيجة لخطئها.

بسكال : المسألة ليست هنا. ولا أدري حقا لماذا أنت شديدة العصبية، هذا المساء.

رينيه : هذا أقل ما ينبغي.. ولكن، كلا، لست عصبية.. وإن كانت تعبيراتكما، أنتما الاثنين حين دخلت.. كلا، هذا شيء آخر.

بسكال : (في جفاء) ماذا؟

رينيه : كان هناك... كلا، من الأفضل أن أنتظر لحظة أكثر مناسبة.

بسكال : من أجل؟

رينيه : لن نلعب ألعابا صغيرة. سأخبرك بذلك فيما بعد.

بسكال : أذكرك بأنني سأخرج هذا المساء نحو الساعة العاشرة والنصف، وستكونين نائمة بلا شك حين عودتي. فليكن ذلك إذن صباح غد.

رينيه : كلا... سأذهب إلى القداس الكبير مع الطفلين. فالقسيس يلح عليَّ أن أصحبهما. عند عودتنا، إذن.

بسكال : سأقضي النهار في متحف الفن مع كورتي.

رينيه : وسنتناول الغداء عند والدي (تنهيدة من بسكال) أنت لطيف...

بسكال : أنا لم أقل شيئا. وفي هذه الظروف، إذا تصادف أن كان ما تريدين قوله شيئا عاجلا...

رينيه : بالمناسبة، حضر ذلك الشتاينبوك ليخبرك أنه سيرحل إلى مراكش. ويسأل إن كنت تعرف هناك أحدا تستطيع أن توصيه عليه.

بسكال : كلا، لا أعرف أحدا. وفضلا عن ذلك، فإن ذلك الشخص قد ترك في نفسي انطباعا سيئا. لا بد أنه كان نازيا،

والأدهى من ذلك أنه ليست لديه مجرد الأمانة التي تدفعه إلى الاعتراف. مما يثير اشمئزازي.

رينيه : يستوي عندي الأمر إن فعلت، أو لم تفعل من أجله شيئا.. أنا مجرد ناقلة.. هذا كل ما في الأمر.

بسكال : ترى أي فساد يمكن أن يصنعه في مراكش؟

رينيه : سيذهب إلى هناك انتظارا للرحيل إلى أمريكا.

بسكال : آه! طيب! هو أيضا! الذعر يزيد حثيثا. فمنذ لحظة، أخبروني في «نادي بن» أن اثنين من زملائي يحزمان حقائبهما.. سيذهب أحدهما إلى جنوب أفريقيا، والآخر إلى شيلي. وهذا كله مثير جدا.

رينيه : من أي وجه؟

بسكال : عليّ أن أكتب خطابا أو خطابين قبل العشاء، فإلى اللقاء حالا.

رينيه : مثير من أي وجه؟

بسكال : ببساطة، لأن الهروب في حد ذاته شعور وضيع.

رينيه : لست أفهم.

بسكال : إنه لشيء محزن. وهذا يثبت أنك نشأت نشأة سيئة جدا، وهذا ما ظننته، كما أنني من جانبي لم أكن قادرا على...

رينيه : أكمِل جملتك.

بسكال : لا أجد الكلمة المضبوطة.

رينيه : إتمام تعليمي؟

بسكال : إذا شئتِ.

رينيه : ما كان ذلك ليثنيني عن طبيعتي.. وأنت لا تتصف بأي صفة تجعلك تدعي هذا الحق.. وأنا أعني.. أي صفة.

بسكال : هذا جائز جدا. غير أن المسألة ليست على الإطلاق مسألة حق. والأرجح أن تكون... ما علينا، لم يتبقّ لي غير بضع

دقائق قبل العشاء. ولا أحب أن أضيعها في ثرثرة لا جدوى منها.

رينيه : معي أنا تضيع وقتك؟

بسكال : أحيانا.

رينيه : هذا خسارة حقيقية، لأننا في مستقبل قريب جدا لا مفر من أن نكون معا على انفراد في أغلب الأحيان.

بسكال : (في شرود) ولماذا؟ (صمت) لماذا يا رينيه؟

رينيه : (في صوت مرتجف) عندما نكون هناك.

بسكال : أين سنكون؟ لست أفهم شيئا على الإطلاق. (تناوله رينيه الخطاب) ما هذا الخطاب؟ (يتأمله) خطاب من كارلوس مارتينيز! (يقرأ) إلامَ يشير؟ هل كتبتِ إليه؟

رينيه : أجل.

بسكال : لكي تطلبي منه أن يجد لي منصبا هناك؟ من دون علمي! بأي حق؟ وهذا الشخص الذي لا أكاد أعرفه، سيتخيل أنك تكتبين إليه بإيعاز مني، وسيعتقد أنني من الجبن بحيث لا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي!

رينيه : ما أكثر ما تستخرج من أشياء!

بسكال : كنت سأمنعك، وأنت تعلمين ذلك، ولأنك تعلمين كتبت في الخفاء. تصرفت كطفلة غريرة. ولحسن الحظ، حين أُبرق هذه الليلة نفسها إلى ذلك الرجل برفضي، فسيرى جيدا أن هذا التصرف غير الملائم تمّ من وراء ظهري.

رينيه : تقول إنك سترفض؟

بسكال : كلا، ولكن، بكل جدية، أيراودك أدنى شك في هذا الموضوع؟

رينيه : حذار يا بسكال، المسألة خطيرة.

بسكال : لا أظن أنك تلجئين إلى إرهابي بأي صورة كانت.

رينيه : أنا، لا اعتبار لي، هذا مفهوم. ولكنَّ هناك الطفلين، فهل تأخذ

على نفسك مسؤولية تعريضهما للموت وللتعذيب، وللنفي؟

بسكال : ولأي شيء أيضا؟ التدرج ليس ناجحا غاية النجاح.

رينيه : أتجد في هذا مادة للمزاح؟

بسكال : إن طفليّ فرنسيان صغيران، وسيتبعان مصير أبويهما، وهما أيضا فرنسيان.

رينيه : هذه ألفاظ لا تؤثر فيّ. وعلى حد تعبير ذلك الألماني الذي قال منذ لحظة: أين هي فرنسا؟

بسكال : إن بقاءها يتوقف علينا نحن. وأنت من أولئك الذين يغتالونها، أنت يا من تتخذين من رجل ألماني أستاذا للتفكير.

رينيه : هل أصبحت وطنيا في الوقت الحالي؟

بسكال : إنك لا تعرفين حتى معنى الكلمات.

رينيه : إن مفتش المالية الشاب الذي تعشّينا معه ذلك المساء قالها بحق: منذ حرب إسبانيا، لم تعد ثمة أوطان.

بسكال : ولكن، لسوء الحظ، إنه شيوعي سري، مفتشك ذاك، هذا إن لم يكن عضوا في إحدى الخلايا.

رينيه : سيان عندي. إنه فتى غاية في الذكاء، وأذكر – بين قوسين – أنه سلك سلوكا رائعا جدا في أثناء الحرب، على حين أن بعض الفرنسيين الأصلاء ممن أعرفهم كانوا يضطجعون في بواخر عابرة للقارات على مسند صغير مأخوذ من الهضبة الوسطى.

بسكال : تأخذين عليّ الآن أنني أذعنت لإلحاحاتك حين رفضت الالتحاق بالجيش السري؟ لا، وتضيفين إلى ذلك، أنني سيّئ الطوية. كان من الممكن أن تذهب توسلاتك سُدى، لو لم أقدِّر أن واجبي كان شيئا آخر.

رينيه : واجب أقل مشقة.

بسكال : وأنني لم أكن أتمتع بأي صفة من الصفات المطلوبة للحرب السرية.

رينيه : لم تكن فرنسا تبدو قط ذات وزن كبير في نظرك في ذلك الوقت. أوه! أجل، لعلها فرنسا الخالدة، ولكن فرنسا باختصار.. كنت تؤثر أن تُبيِّض خمسمائة صفحة عن جوبير. لم يكن في ذلك ما يعرضك للخطر. ولن تمنعني من أن أقول إنك تتصف بوطنية في حالة كسوف. أما أنا، فالأمر عندي أبسط من ذلك، إذ أعلن بكل صراحة أن هذه الكلمة لا معنى لها.

بسكال : اسكتي.

رينيه : لا معنى لها على الإطلاق.

بسكال : وعلى هذا ينبغي على المرء ألا يفكر إلا في إنقاذ جلده.

رينيه : حياة أطفاله، بكل تأكيد.

بسكال : وإذن، لو لم يكن لديك روجيه وإيزابيل، لما فكرتِ في الهجرة عن وطنك؟

رينيه : لست أدري... هذه الـ «لو» لا تهمني.

بسكال : أما أنا، فأزعم أن طفليك مجرد ذريعة، وأنك خائفة خوفا شنيعا، خوفا من العذاب، ومن الجوع، ومن الجراح والتعذيب...

رينيه : بالطبع، أشعر بالخوف. وأنت أيضا. ليتك أبصرت نفسك حين فضضت الخطاب غير الممهور.

بسكال : وهكذا تتهمينني في وقت واحد بأنني خائف وبأنني أتصرف كرجل لا يخاف شيئا.

رينيه : بالضبط. وهذا التناقض هو الذي يثيرني، ويقززني. والحقيقة هي أنك تكذب على نفسك، وأنت تسعى إلى إقناع نفسك بأنك لست خائفا، على حين أنك تشعر أحيانا بالقلق.

بسكال : أنتِ لا تفهمين شيئا. فمن المؤكد أن ثمة لحظات من القلق

الجسماني تعتريني حين تخطر لي فكرةُ ما قد يُفرض عليّ من سوء المعاملة، وأنا لا أفكر في إنكار ذلك لحظة واحدة، ســواء أمامك، أو أمام نفسي. كل ما في الأمر أنني عقدت عزمي على ألا أحسب لذلك حسابا، وأن أتصرف كأن هذا الخوف غريب عني.

رينيه : ولماذا اخترت هذا الموقف، من فضلك؟

بسكال : إنها مسألة شرف.

رينيه : بل قل إنها مســألة جمالية. إنك ترعى روحك الجميلة كما ترعى المرأة الجميلة حسـنها. وفي سـبيل هــذا الاهتمام الشـخصي، التافه، تنوي تضحية زوجتــك وطفليك! هذا شـــيء غاية في البشاعة. وأنت الآن تُعنى بما سيكتب عنك بعد موتك. أما أنا، فأريد أن أعيش.

بسكال : في الوقت المناسب، ها نحن نرتد صغارا..

رينيه : أولا، لمن أُضَحّي؟ ومن المستفيد من وجودنا هنا؟ أما كتبك، إذا كانت لهــا قيمة – وهذا ما أجهله – فيمكنك أن تكتبها فـــي أي مكان، بــل ربما كان أي مكان خيــرا من هنا. وما فائدة أمثالك حين تنســحق باريــس تحت القنابل، أو حين تُسَلّم لمجانين الضاحية الحمراء؟

بسكال : ما هكذا يكون التفكير الســليم. ولن أضرب بنفســي مثلا على الجبن، ولن أسهم في أن أعرض على كائن من كان صورة لفرنسا ناكرة لنفسها في الذعر والعار.. والآن، هيا إلى العشاء.

رينيه : العشاء! يتصور أنني سأتناول العشاء!

بسكال : أما أنا، فســأتظاهر، على كل حال، من أجل الولدين فقط، تعاليّ.

* * *

الفصل الثاني

المساء نفسه، عقب العشاء.

المنظر الأول

بسكال، ومارك – أندريه

(مارك – أندريه دخل من فوره، ولم يخلع معطفه بعد)

بسكال : مســاء الخير، يا بنــي.. عليــك، أولا، أن تتخلص من هذا المعطف. (مارك – أندريه يخلع معطفه، ويضعه على مسند أحد المقاعد) ســعيد برؤيتك. لماذا لا تدعو نفســك بدون تكليف إلى الغداء أحيانا؟

مارك أندريه : أكاد أقضــي النهــار كله تقريبا في الحــي اللاتيني. وأنتم تسكنون بعيدا.. ثم إنني لا أحب أن أشعر بالتطفل.

بسكال : ولكن أنت مجنون... لشــدّ ما أعاني مــن افتقاري إلى كل اتصال بالفتيان من ســنك. وهذه فرصة لاســتئناف هذا الاتصال.. فمرحبا بها.

مارك – أندريه : أعتقد أنك ترانا جميعا مخيبين للآمال، وأنا أولهم.

بسكال : مخيبين للآمال؟ وأسفاه. ألسنا نحن، أعني الأشخاص من جيلي .. ألســنا نحن الذين خيبنا أملكم، نحن الذين تركنا هذا العالم ينحدر صوب الرعب والجنون؟ أعلم جيدا، أننا لا نتحكّــم تحكّما مباشــرا في الأحــداث، ولكن هل كانت رؤيتنــا واضحة بما فيه الكفايــة؟ وهل عرف أولئك الذين يملكون منا وســائل التعبير إطــلاق التحذيرات الضرورية في الوقت المناسب؟

مارك – أندريه : ما كان أحد سيفهمهم.

بسكال : وكيف نستطيع أن نعرف ذلك؟ من المريح حقا أن يُطَمّئن الإنسان نفسه على هذا النحو. وينبغي ألا نكون قدريين بالنسبة إلى المستقبل. ولكن، علينا في الوقت نفسه ألا نعترف بأن الأخطاء كان يمكن تحاشيها. كان أمامنا الاختيار، ولكننا اخترنا الطريق الخطأ، ولو أننا قضينا على الهتلرية في مهدها... ألا تعتقد ذلك؟

مارك – أندريه : أنا لا أعرف شيئا عن هذه الأمور، ولا أهتم كثيرا بالتاريخ. يكفيني الحاضر.. إنه يكفيني لو أن المرء يستطيع أن يجد فيه متنفسا.

بسكال : إذن فأنت تبحث عن مهرب؟

مارك – أندريه : لو كنت شاعرا أو موسيقيا، أعتقد أنني كنت أستطيع قبول كل شيء... ولكني حُرمت هذه المواهب كما حُرمت المواهب الأخرى جميعها. وهذا شيء ألمسه حين أقارن نفسي بزملائي.. لست أملك أي موهبة. حتى حواسي التي لم تستيقظ..

بسكال : (محرجا) يا بنيّ...

مارك – أندريه : هذا شيء غريب، فأنا لا أشعر بأي حرج حين أفضي إليك بذلك، بل على العكس، أشعر بأن هذا يزيح عبئا عن صدري. لا بد أن هذا راجع إلى مقال لك قرأته حديثا من آمييل، وصعوباته الحميمة.. وقد حاولت.. مع بعض البنات.. وأيضا مع صبي، وخصوصا مع صبي. هل أصدمك؟

بسكال : كلا، يا صغيري.

مارك – أندريه : إنه يبعث الاشمئزاز في نفسي، بل إنه ترك عندي ما يتركه ضرب من الشغل الفظيع... ولا أعتقد أن المرء يمكن أن يسمي هذا ندما. ثم لماذا كان ذلك شرا؟ أتعتقد أنه شر يا عمي أن يتحابّ الأولاد؟

بسكال : لا أستطيع أن أجيبك، فقد تلقيت تراثا مسيحيا ربما أكون قد أسرفت في إنفاقه. وهذا الميراث ينطوي على عدد من النواهي لم أتجشم أدنى عناء في مراعاتها، فلو كنت في مثل سنك وجاء صبي ليعرض عليَّ أن... لطردته بعدة ركلات من قدمي.

مارك – أندريه : طبعا... ولكن حين يبلغ روجيه السادسة عشرة أو السابعة عشرة، ماذا تقول له عندئذ؟ أستكون من أولئك الآباء الذين يُحجمون عن مناقشة موضوعات معينة بصراحة مع أبنائهم؟

بسكال : إن روجيه وإيزابيل يذهبان إلى القداس، كما أنهما أديا تناولهما الأول، بل لقد أدياه في حماس. وآمل أن يعمر الإيمان قلبيهما فالحق أنه في سنهما...

مارك – أندريه : أنت ترجو أن يعمُر الإيمان قلبيهما. فهل أنت على يقين تام من أنه مازالت لهذه العبارات أي دلالة؟

بسكال : مازالت؟ ماذا تريد أن تقول؟

مارك – أندريه : أنت تعرف، أنا أمي تمنت أن أكون بروتستانتيا، أوه. على مذهب بروتستانتي متحرر بقدر الإمكان. وانضممت إلى مدرسة الأحد، واستمعت طوال عامين إلى مواعظ الراعي بروسيون. وانتهى بي الأمر إلى أن استأذنته في توجيه بعض الأسئلة إليه. وفي خلال تلك المحادثة اكتشفت أن ذلك الراعي لا يؤمن ببعث المسيح. وإني لأتذكر الكلمات التي استخدمها. قال لي هذا في غاية من البساطة. فكان ذلك ضربة لازب. إذ ينبغي أن نفهم البعث بمعنى رمزي.. رمزي بحت.

بسكال : يابنيّ المسكين.

مارك – أندريه : ومنذ تلك اللحظة، أخذت أنفر من البروتستانت.

بسكال : إنهم لا يفكرون جميعا على هذا النحو.. بل أبعد من ذلك كثيرا... والكاثوليك...

مارك – أندريه : هؤلاء، لأنهم يمنعونهم عن ذلك.

بسكال : لا أعتقد أن المسألة بهذه البساطة، ثم إني أظن أخيرا أنك لم تطلب التحدث معي لكي تكلمني عن الدين، أو لتطلب مني رأيي في الحب الإغريقي.

مارك – أندريه : كلا، بكل تأكيد. ولكن المسائل جميعا مترابطة، على ما يبدو لي.

بسكال : وكيف هذا؟

مارك – أندريه : أتتصور الجو الذي أعيش فيه يا عمي؟

بسكال : أولا، إن لك أما لا تحيا إلا من أجلك.

مارك – أندريه : سنتحدث عن أمي حالا. ولكن ما مستقبلي؟

بسكال : المستقبل مجهول بالنسبة إلينا جميعا، وأتفق معك في أنه مشحون بالخطر.

مارك – أندريه : (منتعشا) عشتَ، وأنا لا أعلم جيدا كيف كانت حياتك، ولكنك على كل حال، كتبت، وأحْبَبْتَ، وآمنتَ بأشياء... وإن كنت لا أعلم بما آمنتَ. وفي مثل هذه الظروف لا تتخذ كلمة المستقبل المعنى نفسه الذي تتخذه بالنسبة إلينا نحن الآخرين. فلا بد أنك تشعر على الأقل بأنك حققت رسالة معينة.

بسكال : هذه كلمة كبيرة، وأنت ترغمني على أن أفحص ضميري.

مارك – أندريه : (في رفق بالغ) عمي بسكال، من أنت؟

(صمت)

بسكال : (في صوت متغير) أنت تفهم يا مارك – أندريه. عشتُ في فترة لم نكن مرغمين فيها على وضع مثل هذه الأسئلة، كنا محصورين في إطار، ومحمولين أيضا.

مارك – أندريه : ولكن، اليوم؟

بسكال : تداعت الصروح.، هذا حق، ولم تبق إلا الكنيسة.

مارك – أندريه : ولكن بالنسبة إلى من ليس لديه... فلنقل إذا شئت سعادة الاعتقاد، بالنسبة إليّ، أو بالنسبة إليك أنت، أليس كذلك؟ ما الكنيسة؟ أناس في إسبانيا وإيطاليا وكندا يعقدون اتفاقات مع الرجعية، ويقدمون ذريعة للماركسيين.

بسكال : ليس ما تقوله باطلا تمام البطلان، ولكنك تردد ما حفظته في هذه اللحظة.. وما لا أفهمه جيدا هو: لماذا لم تكن شيوعيا؟

مارك – أندريه : كلا، ففي رأيي أن ذلك ليس حلا.

بسكال : هذا أفضل.

مارك – أندريه : تقول هذا أفضل. ولكن ربما كان أسوأ.

بسكال : (في مودة) أفضل بالنسبة إلي، مادمنا نستطيع الاستمرار في التفاهم.

مارك – أندريه : أهذا على تلك الدرجة من الأهمية؟ أهذا هو ما يساعدني على أن أحيا؟ لقد تحدثت فورا عن أمي، وعن حبها لي. بكل تأكيد. ولكنه حب ثقيل في تحمله، إن كنت تعلم. آه. لو كان لي إخوة وأخوات. أما الشعور بأنك كل شيء بالنسبة إلى مخلوق ما، فهذا شيء لا يحتمل، بل هذا يحول دون الوجود. وليس من شك أنها على استعداد لبذل كل التضحيات في سبيلي، ولا أريد أن أقول إنها تجعل هذه التضحيات تُثْقل عليّ. أن نكران الذات نفسه، شيء مُعَذِّب. ولو عاد أبي من المنفى – يا عمي بسكال – أو لو أن هناك أحدا غيري في حياة أمي... (يسدد إليه النظر...) أحدا تحبه...

بسكال : (منزعجا انزعاجا عميقا) ولكن، أين يذهب بك الخيال؟ وفضلا عن ذلك، أنا لا أفهم. أتريد أن تقول...؟ أبسببها لا تستطيع أن تنضم إلى الشيوعية، بسبب ما قد يبعثه ذلك من حزن في نفسها؟

مارك – أندريه : ولكن كلا، ليست هذه هي المسألة. وربما تخيلتَ هي ذلك، ولكن ليس هذا صحيحا. وعلى الرغم من كل النفور الذي تثيره الشيوعية في نفسها، فربما أحست بشيء من الارتياح، أن أحدا غيرها يتولى أمري، أو تبناني إن شئت.

بسكال : لا أعتقد ذلك.

مارك – أندريه : ولكنّ ثمة سؤالا مباشرا يوجه إليّ. وبهذا أصل أخيرا إلى الغرض الحقيقي من زيارتي.. لقد عزمت على مغادرة فرنسا.

بسكال : آه!

مارك – أندريه : إن رفيقا يرتبط أبوه بعمل ضخم في أفريقيا الاستوائية عرض عليّ أن يصحبني معه. ولكني، لا أفكر قطعا في أن والدتي تستطيع مرافقتي. أولا، لأنها لن تحتمل الطقس، ثم إنها على كل حال...

بسكال : (في شيء من الجفاء) ولكن، إذا كنت أفهم جيدا، واضعا في اعتباري كل شيء، فإن مشكلتك الشخصية لا تبدو لي شديدة التعقيد، فأنت مثل آلاف الشبان الفرنسيين في هذه الآونة، إن كان لي أن أعتقد فيما يقال. وأنت تخشى مما قد يحدث هنا، وهذه فرصة رائعة تلوح لك كي تجعل نفسك في مأمن من كل شيء... ولكن يا للعجب. أنت لا تجهل الحزن الذي سيسببه رحيلك لأمك، وها أنت تأتي لتستجديني ضمانا لا أعرف نوعه. سأتحدث إليك بكل صراحة، يا صغيري.. إن أمك إنسانة هشة، وأنا مقتنع بأنها لن تعيش طويلا بعد انفصال يحتمل أن يكون نهائيا.

مارك – أندريه : إنك تتحدث إليّ بغتة في قسوة بالغة، يا عماه. والطريقة التي قلتَ بها «لكي تجعل نفسك في مأمن...»، أمن الإجرام أن يريد المرء ألا يموت.. ألا يموت من أجل لا شيء؟

بسكال : وكيف، من أجل لا شيء! لعلك تنسى من قبيل المصادفة...

مارك – أندريه : كلا، أتوسل إليك، ألا تحدثني عن المدنية الغربية. أين هي تلك المدنية؟ ماذا صنعت بنفسها؟ وأي فرصة تملكها للبقاء؟ وأنا الذي لم أعرف منها سوى السقوط والانحلال، لماذا ينبغي أن أكون من شهدائها؟ أولا شهيد.. معناها أن أكون شاهدا. ولكني لا أستطيع أن أشهد في صفّها. ربما استطعتَ أنت، هذا ما أعترف به. وإني لأقولها لك مرة أخرى، إنني أجهل من تكون. ومعرفتي بهذا الآن أقل من أي وقت مضى.

بسكال : (بصوت متهدج) ماذا جئت تطلب مني؟

مارك – أندريه : سأحاول، في لحظة.. وإن كان ذلك عسيرا عليّ، بل لا أدري إن كان لي الحق فيه. ولكن دعني أقل لك أولا، إن هذا الأمر لا يتعلق بي، بكل تأكيد، وربما كنت لا أفهم شيئا. ولكنني لا أدرك لماذا تحكم بمثل هذه القسوة على من يرحلون.. وهل تستطيع أن تتأكد في الأيام الرهيبة من أنك أنت نفسك لن تندم على عنادك؟... أنا لا أتحدث عن خالتي رينيه، وعن الطفلين.. ولكن أنت.. أنت!

بسكال : (بصوت متغير) هذه مخاطرة. ولا أدري ما سأفكر فيه حينذاك. أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أتخيل تلك اللحظة.

مارك – أندريه : إن والد زميلي دنيس موري – وهو مؤمن صادق، بل ربما كان المؤمن الوحيد الذي التقيت به – يعمل مهندسا، وقد رفض منصبا عرضوه عليه في المكسيك. وقال لابنه: «أنت تفهم أنني لا أعلم إطلاقا ما يصنعه هذا الحدث بي، ربما جَعلَ مني رخوا أشلَّ. أنا لا أبالغ في الثقة بقواي، ولكني أومن بالله، وأعتقد أنه لن يتخلى عني، وأنه سيجنبني السقوط التام، وأنه إما أن يستردني، وإما أن يمنحني القوة لاحتمال التعذيب». هذه كلمات وجدت في نفسي صدى، وإن يكن مثل هذا الإيمان يكاد يكون غير مفهوم عندي. ولكن أنت يا عماه. أتستطيع بكل ما تملك من وعي أن تضعه في حسابك؟

بسكال : (فـي تواضع، بعد فتـرة من الصمت) كلا. بـكل أمانة، لا أستطيع أن أفعل ذلك.

مارك – أندريه : ولكن، ماذا إذن؟

بسكال : (مـن دون أن يجيب) في أثنـاء محادثة مضنية جدا دارت بينـي وبين خالتك منـذ لحظات قلت لها: هناك شـرفي كمواطن فرنسي.

مارك – أندريه : (مندهشا) شرفي كمواطن فرنسي؟

بسكال : (في قلق) أتخلو هذه الكلمات بالنسبة إليك من كل معنى؟

مارك – أندريه : يا عمي بسـكال، فلتعترف بأنه باسم الشرف ادّعي الناس خلال أربعة أعوام تبرير أنواع متعارضة من السلوك وينبغي الاعتقاد أن هذه الفكرة ليست شديدة الوضوح.

بسكال : ولكن اليوم...

مارك – أندريه : أنـا لا أرى لماذا يقف الشـرف في صـف الانتحار، ثم إن الشـيء المؤكد هو أن الأبناء لم يُسْتَشـاروا ألهم، هم أيضا شرف، على سبيل التفويض؟

بسكال : ومن الذي أخبرك أنني لا أنوي وضعهم في مأمن؟

مارك – أندريه : وحدهما؟

بسكال : (في عصبية) وأمهما معهما، هذا شـيء مفهوم.. ولكني لم أفهم إلى الآن مـا تنتظره مني. ماذا هناك؟ لماذا انزعجت هكذا بغتة؟

مارك – أندريه : لست أدري إن كان من حقي أن أقول لك...

بسكال : الحق؟ أليس من المستحسـن بالنسـبة إلى الحفريات من أمثالي أن ينشغلوا به؟

مارك – أندريه : أنت لا تفهم. إني أهيئ نفسي لإفشاء سر. فليكن.. عندما قلت لك منذ لحظة إن أمي لم تحب سواي.. لم أذكر الـ... علـى كل حال، لعلها تعتقد ذلك. أما أنا، فعلى يقين من أن هذه ليست الحقيقة.

بسكال : حذار!

مارك – أندريه : كلا.. فات الأوان، ولم أعد أسـتطيع التراجع، وفضلا عن ذلـك، فإنى أقرأ فـي عينيك أنك تعرف فعـلا ما أتأهب لقولـه لك. وأنت تظن أنها لم تبح إلي بأي سـر. ولكن في كل مرة ينتقدونك على مرأى ومسـمع منها، تنبري للدفاع عنك فـي حماس وحرارة. وحين تكون قـد التقت بك في معرض أو حفلة موسـيقية، فإنها تردد ما قلته كلمةً كلمةً.. فإذا رحلت أنا، لم يبق غيرك لكي يربطها بالحياة.. عماه، فلتقسم لي على أنك لن تتخلى عنها.

بسكال : (من دون أن يجيبه) وعلى هذا النحو، اتخذت موقفك؟

مارك – أندريه : وهل قلت كلمةً واحدة من شـأنها أن تغير فكري؟ ولو أنك اسـتطعت أن تخبرنـي بإخـلاص مطلـق: أن إرادة الرب تقضي بأن تبقى، وأنك حين ترحل عن وطنك، فإنك تعصي الرب.

بسكال : أكان هذا يُقْنعك؟

مارك – أندريه : ربما لو حدث من خلال هذه الكلمات شـيء يجعلني أحب هذا الـرب الذي يتطلب الكثير، ولو أنـه أصبح – في لمح البصر – ربنا نحن الاثنين.

بسكال : (بصوت خافت) لم يكن ذلك في قدرتي.

مارك – أندريه : كم تبدو عليك التعاسة فجأة، يا عماه.

بسكال : أمـا فيما يتعلق بوالدتك، فلقد كان كل منا يُكنُّ دائما مودة للآخر. كيـف يمكنك أن تفترض – لحظـة واحدة – أننا سنتخلى عنها، خالتك وأنا؟

مارك – أندريه : لا تقل «نحن»، فإن خالتي رينيه لا تدخل في حسـاب أمي، وأمي لا تدخل في حسـاب خالتي رينيه. فلسـت أعمى.. ومادامت خالتي سترحل مع الأطفال...

بسكال : ولماذا لا ترحل والدتك، هي أيضا؟

مارك – أندريه : أعرف – وأنت لا تجهل ذلك مثلي – أنها لن تتحرك إلا إذا سحبها أحد بالقوة. وهذا «الأحد» لا يمكن أن يكون إلّاك.

بسكال : يـا بني، لا تستطيع أن تجعلني مسـؤولا أيضا عن حياة والدتك.

مارك – أندريه : ولمَ لا؟

بسكال : ليـس لـك أن تلقي على كتفـي واجبا يُكَبّلـك أنت، وأنت ابنُها.

مارك – أندريه : هذا باطل.

بسكال : إنها البينة الواضحة.

مارك – أندريه : قلت لك، إنه باطل. لست مسؤولا عنها. نحن لا ننتمي إلى العالم نفسـه. إنها تحيا مع أبي ومع أولئك الذين فقدتهم، وتحيـا معك. إنها تنتمي إلى الماضـي. أما أنا فأريد بكل قواي أن أحيا حياتي.. أريد أن أحيا حياتي...

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ورينيه

رينيه : صباح الخير يا مارك – أندريه. (إلى بسكال) الساعة بعد العاشرة والنصف، وقد اعتقدت أنك تنوي الخروج.

بسكال : ليس الموعد على درجة كبيرة من الأهمية (تشعر بارتباكه) آه! سـأتصل بالتليفون لأقول لهـم ألا يعتمدوا عليّ. (إلى مارك – أندريه) لا تذهب، فثمة كلمة أريد أن أقولها لك.

(يخرج. فترة صمت)

مارك – أندريه : (بلهجة مصطنعة) هل روجيه وإيزابيل على ما يرام؟

رينيه : إن صحتهما معتلة، ولاسـيما روجيـه. الواقع أن الأطفال مفرطو الحساسـية للجو المعنوي. اصطحبتهما ابنة عمي

فويار في الأيام الأخيرة إلى فيلم سـخيف. وفي الجريدة السينمائية شاهدوا مناظر بشـعة من الحرب الكورية... فعـاد روجيه – وهو مرهف الحس إلى أبعد حد – مريضا تماما. فما كان منـي إلا أن كتبت خطابا للاحتجاج، فمن العار أن تُعْرض هذه الفظائع على الشاشة.

مارك – أندريه : ربما لم يكن من السوء أن يعلم الناس...

رينيه : مَن، الناس؟ خمدت الحساسـية، ولم يعد هناك من يتأثر، سوى الأطفال وحدهم.

مارك – أندريه : ثم!...

رينيه : إنـي أتحدث عن أطفـال حقيقيين، عـن طفلينا. لم أعد أسـتطيع انتظار اللحظة التي انتزعهما فيها هما الاثنين من هذا العالم الملعون. ألم يخبرك عمك بشيء مما يحدث لنا؟

مارك – أندريه : كلا.

رينيه : عرضوا عليه كرسيا في إحدى جامعات البرازيل.

مارك – أندريه : (في دهشه شديدة) أوَ تعتقدين أنه سيقّبل؟

رينيه : إنـه يتظاهر بأنه عازم على الرفـض. ولكني أؤكد لك أنه سيغير رأيه. ماذا بك؟

مارك – أندريه : (بصوت خافت) أفكّر فـي المحادثة التي دارت بيني وبينه منذ لحظة.

بسكال : (عائدا) لقد ألغيت الموعد. ينبغي أن أنشر مراسلاتي.

مارك – أندريه : أيكتبون إليك كثيرا؟

بسكال : إنهم يجعلونني أسهم في الإحاطة بكل ما يدور في العالم.. هل قرأت ما كتبه دوهاميل أخيرا؟

مارك – أندريه : كلا.

بسكال : اقرأه.. فإن ما كتبه صحيح، وسيبقى من بعده.

مارك – أندريه : أتعتقد أن ثمة شيئا سيبقى فيما بعد؟.. أجل، ربما في أعماق مكتبة في سنتياجو عاصمة شيلي، أو في كيبتاون (بجنوب أفريقيا).. ولكن، هل سيكون ثمة قراء؟ أو حب استطلاع يبقى للعقل؟

(رينيه تنفجر منتحبة)

بسكال : اسكت، يا صغيري، اسكت. اتركنا الآن، أريد أن أذكّرك فقط لتقول لوالدتك كي تتصل بي بالتليفون غدا.. مع السلامة.

(يعانقه)

المنظر الثالث

بسكال، ورينيه

بسكال : اهدئي، يا صديقتي المسكينة، ينبغي ألا تعلّقي أي أهمية على ما يقوله ذلك الطفل.

رينيه : (في نحيبها) أنت تعلم جيدا أنه على حق.

بسكال : كلا. إنه مجرد صدى لتنبؤات لا معنى لها. أيستطيع المرء أن يعرف؟.. هل يلجأ العالم إلى القنبلة الذرية؟ أميل بقوة إلى الاعتقاد أنه لن يفعل.

وهذه المسألة مثل حرب الميكروبات..

رينيه : ومن أدراك؟

بسكال : أوه! لست ناقما عليه. بل على العكس، إني أشعر نحوه بعطف عميق.

رينيه : (في شدة) ليس لديه ما يشكو منه أكثر من سواه.

بسكال : ربما كان لديه – يا رينيه – أكثر من غيره. لقد فقد أباه.

رينيه : ليس وحده في ذلك.

بسكال : إني ألوم نفسي على تقصيري في واجباتي حين لم أسهر عليه السهر الكافي.

رينيه : أنت تعلم تمام العلم أن إستير كانت تتهمك بالتدخل في شؤونها لو أردت الاعتداء على حقوقها..

بسكال : لا أظن ذلك حقا. ثم من الذي يتحدث عن حقوق؟ كلا، الواقع أن ما شعرت به خلال تلك المحادثة الطويلة هو أنني لا أملك وسيلة أساعد بها هذا الطفل، وأشد من عزمه. والأسرار التي أفضى بها إلي.. يا للبشاعة.. إنه ينتمي إلى أفقر جيل ظهر على سطح الأرض إنه لم يعد يؤمن بشيء.

رينيه : وأنت؟ أتراك تؤمن بشيء؟ أتصحبنا ولو حتى إلى القداس.

بسكال : (في كمد) المسألة لا تتعلق بي في هذه اللحظة، يا رينيه.

رينيه : اعترفت بنفسك بأنك غير قادر على توجيهه. ثم إن أمه.. يعلم الله أي أخلاق تلك. جميل والآن، ها أنت ترى النتيجة.

بسكال : إن الأخلاق لا تُنقل من شخص إلى آخر.

رينيه : كفانا حديثا عن هذا الصبي الذي لا نستطيع أن نفعل من أجله شيئا، لا أنا ولا أنت. هل أمعنت الفكر؟ وفضلا عن ذلك، أتساءل: كيف ستجد الوقت؟

بسكال : محادثتي مع مارك – أندريه، لم تصرفني عن المسألة التي تشغلك، بل على العكس. إني أعتقد أنه ليس من حقي معارضة رحيلك عن فرنسا.

رينيه : وكيف؟

بسكال : أنت والطفلين.

رينيه : أنت مجنون تماما. أتتصور أنك تستطيع فصل مصيرك عن مصيرنا؟

بسكال : ولم لا أستطيع، على الأقل، مؤقتا؟

رينيه : هذا المؤقت نفاق خالص. وأنت تعرف مثلي أننا لو لم نرحل الآن، فلن نستطيع الرحيل ألبتة.

بسكال : أنا لا أعرف شيئا، ولا أنت أيضا.

رينيه : وفي اليوم الذي ستجد فيه أن الوقت قد حان، سيكون الأوان قد فات. ثم، هل أنا، وهل الطفلان، هل نحن الذين وُجهت إلينا الدعوة؟ إنهم لن يقبلونا إلا لأنك تعولنا، فلا مكان لنا في سان فيليب – وحدنا من دونك.

بسكال : إن كارلوس وإينيس صديقاك.

رينيه : لن أذهب إلى هناك متطفّلة.

بسكال : هذا الذي تستسلمين له الآن، نوع من الابتزاز.

رينيه : إنني أقتصر على عرض الوقائع. لن نرحل – من دونك، لأن هذا مستحيل، وكذلك لأني لا أقبله.

بسكال : لماذا؟

رينيه : أأحتمل أن يقول الناس عني: لقد تخلت عن زوجها؟.. أتعتقد حقا أنني أحتمل ذلك؟

بسكال : آه، حسن. إذن فأنا مُثبَّت في مكاني.. الخوف مما يقوله الناس، وتريدين أن أنحني أمام شعور بائس كهذا؟ انظري يا رينيه، لو أنك جئت تقولين لي: «لن أعيش إذا علمت أنك في خطر على حين أنني بمأمن»..

رينيه : بكل تأكيد.

بسكال : تقولين: بكل تأكيد. دائما مثل هذه الكلمات لا تنطقينها، وربما كان هناك ما يدعوني إلى الاعتراف بجميلك، لأن ذلك يمكن أن يكون أكذوبة...

رينيه : بسكال!

بسكال : أنا لا أقول أبدا إنه لن يسوءك أن تعلمي أنني تحت القنابل، أو أنني في صراع مع ما لا أدريه من «التشيكا».. أنا أعلم أن ذلك سيسوؤك جدا. فأنت لست مسخا، بل أنت طبيعية بفظاعة، يا مسكينتي رينيه.

رينيه : ماذا يعني هذا: طبيعية بفظاعة؟

بسكال : هذا معناه أنك لم تهيَّئي لمعاناة مشاعر مطلقة.. كلا، كلا، لا تقولي عكس ذلك. أوه. بكل تأكيد هناك طفلان، ولكنك تحبينهما كما يحرص المرء على جلده.. كلا، كلا، كلا يا رينيه، المطلق لا يدخل ضمن أوتارك.

رينيه : ماذا يعني هذا المطلق؟

بسكال : الوفاء، ولا شيء سواه.

رينيه : أتتهمني بأنني قد خُنْتُك؟

بسكال : ليس ثمة ما هو أبعد عن فكري، وليس لدي أدنى دافع إلى افتراض أنك خنتني كما تقولين، وأضيف – عابرا – أنك حتى لو سقطت يوما بتأثير مفاجأة من مفاجآت الحواس، فربما لم يكن الأمر خطيرا في عيني...

رينيه : عجيبة!

بسكال : نحن لسنا في المسرح نشاهد مسرحية لهنري برنشتاين أو لبورتوريش. كلا.
الوفاء – يا رينيه – ليس امتناعا. لقد رأيته يلمع – منذ ساعات في نظرة لم تكن من نظراتك.

رينيه : أي نظرة؟ وأي وفاء؟ إني أطالبك بأن تفصح عن نفسك.

بسكال : لست طوع أمرك. وليس لك أن تطالبي بشيء، وإذا كنت لا تفهمينني، فأنا على العكس، أقرأ نفسك كأنها كتاب مفتوح.

رينيه : هذا شيء غير مؤكد...

بسكال : إن ما له قيمة في نظرك هو أمْنُك، وأمْنُ طفليك. كل هذا طبيعي، للمرة الثانية.. ولنضف أمني أنا، إذا كان ذلك يسرك، لأن ثمة أسبابا تتعلق بالراحة وبالاحترام الإنساني. ربما لم تجعلي من اليسير عليك في الواقع، أن تفصلي مصيري عن مصيرك.

رينيه : ثم...؟

بسكال : ثم، إني لم أعد أرى. لقد أطبق عليّ الظلام.

(صمت)

رينيه : (في ارتياح) أعتقد أنك لم تكن تتحدث على هذا النحو منذ ساعتين..

بسكال : (في عنف) أراك تعتقدين فعلا أنك واثقة من الانتصار. ولكنك مخطئة، يا رينيه. فالشرف موجود، برغم كل ما تقولونه عنه، أنت ومن على شاكلتك. وستبقى فرنسا، مادمت أشعر بأنني مازلت فرنسيا.

رينيه : ومن طلب منك إنكارها؟ ألست ببقائك تخاطر على العكس، بأن تصبح مرتدا؟ إني لأذكر ما قلته لي ذات يوما في أثناء وجود الجستابو. ألا تعرف إلام أشير؟

بسكال : كلا.

رينيه : ما أسوأ ذاكرتك يا صديقي. عندما قضى رجل المظلات الإنجليزي عندنا ليلة في ٤٣ شارع لاروش. سان – هيريم، وأراد أن ينقل إليك تعليمات سرية لا أعلمها، مازلت أسمع صرختك: «كلا! صحت في وجهه، كلا، لا أريد أن أعرف شيئا، لا أريد أن أحمل سرا يمكن أن ينتزعه التعذيب مني...».

بسكال : كنت على حق.

رينيه : بلا شك، ولكن، استخلص النتيجة. أنت لست شخصا قويا

يا بسكال، ولست واثقا بنفسك. وسأخبرك بشيء آخر لاحظته مرارا، أنت تحب الترحيب، حتى بالخصم، بل على الأخص بالخصم. ولأنك تخاف من نفسك مما يسميه أصدقاؤنا بروح الضيافة، لم تشأ الرجوع إلى باريس وهي تحت الاحتلال، مع أنك لم تكن تخشى شيئا سوى نفسك.. وهذه حقيقة هي المقاومة الوحيدة التي تستطيع أن تزهو بها ولكن، أيمكن أن نسمي هذا شجاعة؟ أيمكن أن يكون الخوف من الخوف شجاعة؟

بسكال : (في قوة) أصغي إليّ. ليس من اليسير غاية اليسر أن نجرد أفعالنا جميعا من صفاتها فننسبها إلى الأنانية أو إلى الجبن.. ولكني لا أعلم ما هو أدنأ من ذلك السرور الذي يجده المرء في تجريد إنسان من صفاته، ولا شيء أشد عمى للبصيرة. ولو كنت أخاف من الخوف كما تقولين، لكنت قد رحلت.

رينيه : سترحل.. وسنرحل.

بسكال : لو كنت خائفا، لما أقدمت على تلك المخاطرة التي تلوحين لي بها بذلك البريق الشرير في عينيك.. مخاطرة أن أكون متواطئا، وأن ألوث شرفي.

رينيه : لم يعد ثمة شرف.

بسكال : لم يعد هناك إذن إلا اختيار العار الذي نفضِّله.

رينيه : لم يعد ثمة شرف.

بسكال : لماذا تتحدثين منذ خمس دقائق بهذه السلطة، وهذا العناد؟

رينيه : ابحث.

بسكال : ماذا؟

رينيه : هذه السلطة تأتي منك، وصوتي هو صوتك، إنه صوتك الصادر من الأعماق. وهذه الكلمات التي تجرحك، أنت

الذي توحي بها إليّ.. إنها الكلمات التي لا تجد عندك الشجاعة بعد للإصغاء إليها من قرارة نفسك. (صمت. ثم بصوت متغير) والواقع، ما هذه النفس الوفية، وتلك النظرة غير العادية.

بسكال : (بعد هنيهة) زميل من الليسيه التقيته مرة أخرى هذه الأيام الأخيرة.. إسرائيلي.

رينيه : أتعرفه إستير؟

بسكال : جائز. أجل، من الممكن أن تكون إستير قد التقته.

* * *

الفصل الثالث

بعد انقضاء يومين

المنظر الأول

بسكال، وروبير

روبير : لماذا تصر على الإنكار؟ لقد قَصَّت رينيه كل شيء على أمها، وهذه سارعت بدورها إلى ترديدها على مسامعي.

بسكال : أتتردد كثيرا على حمَوَيّ؟

روبير : إني أذهب لرؤية الوالد من حين إلى آخر. أشغل نفسي أحيانا بقروضه، وأنت تعلم ذلك تمام العلم.

بسكال : أنت! إني أرى ذلك رائعا.

روبير : أرجوك..

بسكال : يبدو على والدك وزوجة أبيك أنهما يقاومان هما الاثنان ريح الذعر هذه.

روبير : إنها منفعلة انفعالا شديدا، وهذا كله يسليها بجنون. أما هو فأشد هَمّا، ولكنه يقرأ «لوموند»، ويرجو أن نبقى على الحياد. وهذه الفكرة لا تروق للوسيين التي تؤثر الحلول الواضحة. وهي تتظاهر بأنها لا تقرأ الصحف، ولكنها ليست مع ذلك أقل معرفة بكل ما يحدث، بل بما سوف يحدث. ولست أدري إن كانت تتردد على العرافات.. وقد كنت أعتقد أنهن لا يفكرّن في الرحيل، ولما كانت لوسيين لا تدس أنفها في الخارج...

بسكال : وكيف كانت استجابتهما لنوايا رينيه؟

روبير : أما هي فبألوان من النقيق، وأما هو فبضروب من التنهيدات.

بسكال : أتنوى رينيه أن تصحبهما إلى البرازيل؟

روبير : لقد ألمحت إلى ذلك تلميحا غامضا أثار ألوانا جديدة من النقيق، من الطرفين هذا المرة: في سننا! نحن اللذين لا نحتمل السفينة، ولا الطائرة! أنت مجنونة! وكانت تتوقع هذا كله. ويبدو أن لديهما كميات صغيرة من المُنَوِّمات حين يبتلعانها بجرعة مرتفعة تخلصهما من كل الهموم في اللحظة المناسبة. وبدت رينيه مغتبطة بهذا الحل. ولكن أنت؟ يبدو أنها قالت إنها حوّلت تفكيرك إلى جانب مشروعاتها للهرب. أهذا صحيح؟

بسكال : كيف تريد أن تستطيع رينيه تحويل شخص ما إلى أي فكرة كانت؟

روبير : إنك تتلاعب بالألفاظ وأنا أراني دون حاجة تدعوك إلى أن تقول لي، إن رينيه قد انتصرت على هواجسك، فأنا أعرفك بما فيه الكفاية لأعلم أنك تخفي انتصارها. ولكنني أفترض أن هذا قد نزع هاجسا...

بسكال : أنت تضع الأسئلة وتجيب عنها بنفسك.

روبير : إنك لا تتجاوز حدودك أبدا.

بسكال : أرجو أن توفّر عليّ مشقة الإجابة عليك. وإنما أحب أن أعرف: فيمَ يخصك هذا، أو ببساطة فيم يعنيك.. فأنت لا تحب رينيه، ولا تحبني.

روبير : إن بي نقطة ضعف نحو طفليك، أو على الأقل نحو الولد. والبنت أيضا ضعيفة.

بسكال : أمهما على حق حين تريد إبعادهما. فباريس لا تصلح لهما. ولن يمكثا فيها على أي حال.

روبير : هل فكرت جيدا فيما لو أنك توليت تنشئتهما في أمريكا الجنوبية فمن المحتمل ألا يستطيعا العودة هنا إلى الأبد. هل تأخذ على عاتقك هذه المسؤولية؟

بسكال : إن أحدا منا لا يستطيع أن يعرف ما يمكن أن يصير إليه هذا البلد. وحتى لو احتفظت بوجود مادي، فإننا نجهل إن كان سيستعمرها القرغيز أو التركمان..

روبير : هذا عجيب.

بسكال : ما العجيب؟

روبير : كنت أحسب أنك لا تردد على لسانك سوى الشرف الفرنسي.

بسكال : ترويّتُ كثيرا منذ يومين. ولم أعد واثقا بمعرفتي أين تقف فرنسا.. فمنذ الحرب الأخيرة نعلم أنه ليس من اليسير دائما تحديد موقفها.. من الممكن قبل كل شيء.. أجل، فمن الممكن أن تُدْعى إلى البقاء في أولئك الذين سيملكون الشجاعة لانتزاع أنفسهم من أرض أصبحت نهبا لجشع البرابرة. إنني أمضي بعيدا يا روبير، وهذه الفكرة التي تسلط عليّ منذ أمس الأول، من دون أن أعتنقها تماما، تتخذ في حضورك صفة البينة. فليس الرجال من أمثالك هم الذين سيؤكدون...

روبير : (بصوت أشبه بصوت الناي) الدوام الفرنسي.

بسكال : لماذا تصطنع نبرات المهرج هذه؟ إنك لا تفكر إلا في تسليم فرنسا، بعد أن لم تعمل إلا لهزيمتها.

روبير : شكرا، على كل حال!

بسكال : أوه! أعلم جيدا! إنك تصرفت تصرف الوطني خلال تلك السنوات المريعة أو هذا على الأقل ما اعتقدته، ولم يكن ذلك يخلو من شك، ومن قلق لم أستطع أن أتخلص منه قط. ذلك لأنك سُررت في نهاية الأمر للهزيمة. أجل، لأنك اعتقدت أنها تسمح لك ولأصدقائك بإدانة طبقة بغيضة، وكأن ضروب التخريب التي نظمتموها في المصانع لم تُمهِّد لكارثتنا.. فأنت شريك في خدعة كبرى، ولهذا السبب، لا شيء مما تفكر فيه يمكن أن يؤثر فيَّ اليوم. ومع التسليم

بأنني قررت أخيرا أن أصحب زوجتي وولدَيَّ إلى البرازيل، فلستَ في موقف يسمح لك بتوجيه أي اتهام إلى مسلكي. أنا أعرف الآن أنك لم تتصرف كوطني، لحظة واحدة.

كلا، يا روبير، بل تصرفت كمشايع، مجرد مشايع لا أكثر..

روبير : (متمالكا نفسه) من ذا الذي يتحدث عن اتهام، أو عن حكم أخلاقي؟ هذه أوهام، وأنت تعلم ذلك مثلي. ولكنني أريد أن تلاحظ فقط أنك إذا كنت قد ملكت من الجرأة ما جعلك تعامل فرنسا على أنها جثة، وتدعي ادعاء عجيبا بأنك تصحب روحها نحو الشواطئ البرازيلية، فإنني أنا وأصدقائي قد تعهدنا بالمحافظة على فرنسا حقيقة، وليست ميتة، فرنسا الثورية التي لم يسمح لك ضميرك السيئ – ضمير البورجوازي المرهون – بأن تعترف بوجودها. وأنا أقرر بأنك قد تحدثت في كتبك أحيانا كثيرة، عن الوفاء من جانبك أو من جانبنا؟ يبدو لي أن الإجابة واضحة بما فيه الكفاية.

بسكال : أيا كانت الاتهامات التي يمكن أن توجهها إلى فرنسا الثورية، فإنها كانت – على الأقل – مستقلة، لم تكن تتلقى قانونها إلا من نفسها، ومن رجال جنسها الذين اتخذتهم مرشدين لها، ولم تكن في خدمة، ورهن إشارة دولة آسيوية أجنبية عن كل تقاليدها... وأنا أقول عن كل تقاليدنا، أيا كانت.. ولست أرى قط أن كلمة الحرية قد بعثت أي صدى عبر الأورال أو حتى هناك، وحين يطلق القوفاز خيولهم ترعى في غابة بولونيا، فسوف تستيقظ ذكرى ١٨١٥ البشعة في الضمائر الغافية.

روبير : (في حدة) كفى. إن الاحتلال الذي تؤرق صورته ليالي أمثالك، أقول لك – أنا – إنه لن يحدث. سنتدخل في الوقت المناسب للحيلولة دون وقوعه. لقد تلقينا تأكيدات رسمية. ولست في حل من أن أقول لك المزيد.

بسكال : كلا، ولكن، أتعتقد فيما تقول؟ أتعتقد أن الوعود تحتفظ بأي معنى في العالم المسكوفي؟

روبير : هذا يتوقف على الظروف. فعلى الجانب نفسه من الحفرة يبقى الإيمان المثبت بالقسم، وسواء من هذا الجانب أو ذاك، يكون احتراقه من قبيل الخداع.

بسكال : ومع ذلك ينبغي أن نتظاهر أحيانا.

روبير : أحيانا، في الواقع. مسألة تكتيك.

بسكال : أتعترف بذلك؟

روبير : بل إني أعلنه على الملأ.

بسكال : ولكن ألا تلاحظ أن التفكير على هذا النحو معناه الوصول بتدمير الإنسان إلى غايته؟

روبير : الإنسان، أنا لا أعرفه. وحين تقال هذه الكلمة أخرج مسدسي.

بسكال : تكاد تكون هذه العبارة يا روبير مقطوعة من المحفوظات. وما يروعني ليس فقط أنك مخلص، ولكن أنه ما من شيء يهتز فيك حين تتفوه بهذه العبارات المدنسة. ألا تشك في أن التخلي عن الكلي، هو بالنسبة إليك، وبالنسبة إليّ، وبالنسبة إلينا جميعا، عزل لنا واعتزال، إن معناه أن نضحّي بأنفسنا مقدما إلى إله من تلك الآلهة الجديدة التي ليست عبادتها سوى دعاية. أمن الممكن أن تكون مخدوعا إلى حد الاشتراك في هذه المهانة؟

روبير : لن أكلف نفسي عناء الرد عليك. والسقوط – على حد قولك – تسليم، كتسليمك، فأنت لم تعد تؤمن بشيء، ولم تعد تأمل شيئا، ولكنك تستمتع بترف السخط بثمن بخس. وأقول بثمن بخس، لأن تلك الفورات الانتقامية لا تعرضك لأي عقاب، أو على الأقل هذا ما تعتقده، فهي تساوي عندك تهليلات ضميرك المسكين، ضمير البورجوازي المنحل. وها

أنــذا أقول لك، وأكرر هذا القول عليك، إننا نؤمن بكل قوانا بأن الشيوعية الفرنسية ممكنة، بل بأنها حتمية، لأن ما يجب أن يكــون، لا يمكــن إلا أن يكون. وربمــا كان لا بد للوصول إليهــا من اجتيــاز مرحلة صعبة، علينــا أن نكبح فيها بعض القفزات، وهذا القول ينطبــق عليّ، كما ينطبق على غيري. إنها مخاطرة ونحــن نقبلها بعيون مفتوحة، وحتى إذا كان لا بد من أن تســحق أشــخاصنا، فليكن لأنــك مهما قلت، فإن أشــخاصنا لا قيمة لها. نحن دروب تــؤدي إلى ما هو أعلى منا. أما أنت فلست سوى طريق مسدود، بل دعني أقلها لك: بالوعة... لا جدوى من الاحتجاج، لأن اقتناعي قد اســتقر، كما استقر اختيارك.. لأنك قد وفقت وأحسنت الاختيار.

بسكال : هذا باطل.

روبير : إن التأرجحات التي تنتزع منها ذريعة للادعاء بأنك حر، لا قيمة لها أكثر من قيمة التذبذبات الأخيرة لمؤشــر الميزان. ولســت مندهشا من ذلك، فأنا أعرف ما ينبغي أن أتمسك بــه منذ أن رأيتك تفضِّل الامتناع عن اتخاذ أي التزام كان، لأن الالتــزام كان خطرا، طــال الأجل أو قصر. وكنت على ثقة دائما بأنه حين تحين اللحظة الحاســمة ستجد وسيلة للفرار. وكنت أعتقد طبعا أنك ستعرف كيف تضمن هروبك في ظروف أكثر من ذلك تألقا...

بسكال : عفوا. ماذا قلت؟

روبير : أنت تفهمني جيدا.

بسكال : أنا لا أدري إلى أي شيء تشير.

روبير : ألم تشــك مطلقا في أن ذلك الـ «كارلــوس مارتينيز» كان يواظب على مغازلة زوجتك منذ عامين في بياريتز؟

بسكال : هذا أول خبر. أتجهل أنني كنت في اســكنديناڤيا في تلك اللحظة.. ومع ذلك تلجأ إلى التلميح؟

روبير : إطلاقا. أقول، إن مــا هو واضح للعيان، أن طلب مثل هذه الخدمة، في هذه الظروف شــيء عجيب حقا، ومن الممكن أن يُفْسح ذلك مجالا لافتراض تبييت النية لاستردادها في الوقت المناسب.

بسكال : أنــت وغد. وهــذه الحكاية لا قيمة لها فــي نظري. كل ما أستبقيه هو الشعور الذي دفعك إلى مخاطبتي وتوجيه هذا الإنذار. فهذا، يكشف عن أشياء.

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ومارك – أندريه

(مارك – أندريه يبدو متهالكا، ويتوقف عندما يرى روبير)

بسكال : مــاذا جــرى؟ ماذا حدث لــك؟ إنك تبدو شــاحبا كالملاءة البيضاء.

مارك – أندريه : هناك.. أوه! أستطيع – على كل حال – أن أقول ذلك أمامه. أوســعوني ضربا عند شــخص كان يتظاهر بأنه صديقي. أتــدري لماذا؟ لأني رفضت – ببســاطة – توقيــع نداء إلى الطلبة يدعوهم إلى الإضراب احتجاجا على إرسال قوات جديدة إلى الهند الصينية.

بسكال : أهنئك، ولكنني لا أكاد أفهم...

مارك – أندريه : أنا لا أعبأ بالهند الصينية، وأعتقد أن الاســتعمار مشؤوم، وربما إجرامي، وأرى أنه كان ينبغي علينا الرحيل في ١٩٤٥. ولكنني تلقيت منذ بضعة أيام رســالة من صديق هناك في الجيــش. زوّدني بتفاصيل رهيبة عن الظروف التي يحارب فيها جنودُنا. إنهم يعيشــون على انتظار التعزيزات، وربما كان مقتــل صديقي ورفاقه متوقفا على... كلا، هذا ما لن أفعله... أنت لا تفهم يا خالي روبير؟

روبير : أنا لا أحفل مثقال ذرة بصديقك وأمثاله. فلو أنه رفض الرحيل، أو ألقى بسلاحه، أو قتل رئيسه، لما انتهى بهم الأمر إلى انتظار أن يأتي آخرون لمشاطرتهم عارهم وموتهم.

بسكال : كفى.. يكفينا هذا! اذهب، فلم أعد أريد رؤيتك.

روبير : فورة مؤثرة من وطنيّ يتأهب للرحيل إلى أمريكا الجنوبية... وعليك – في الواقع – أن تأخذ احتياطاتك. فنحن عدد كبير هناك.. وستُعْطَى أوصافك.

بسكال : بوساطتك؟

روبير : أو بوساطة غيري.. وفيما يتعلق بالأمن، كان ينبغي إيجاد مكان أفضل.. ربما كانت جرينلاند أو جزيرة أخرى عزيزة على «جوجان».. وهناك تشرع في الرسم.. وداعا...

(يخرج)

المنظر الثالث

بسكال، ومارك – أندريه

بسكال : هل نظرت إلى وجهه في أثناء حديثه؟ إنه لم يكن وجه كائن بشري. كلا، إنه هو وزملاءه، ممسوسون.. أعلن دوستويفسكي هذا كله... ولكن، كيف تم هذا المس؟ سأحرص خلال السنوات التي ربما بقيت لي في الحياة على أن أفهمه ولكن، وربما كان هذا البحث بلا طائل، وربما كان هذا كله يجري خارج قدرة العقل على الإدراك.. كأنه وباء. ولكن، لماذا يظهر؟ ما الذي يُعطِي فجأة بعض الجراثيم التي كانت موجودة فعلا تلك القدرة الغامضة على الانطلاق بقوة؟ أو لعلها لم تكن موجودة؟ هذه أخطر مشكلة يمكن أن تكون، ولكن، ربما لم نكن مجهّزين لحلّها. يا بني.. مدَّ ذراعيك.. كنت شجاعا، وأنا أحبك حبا جمّا.

مارك – أندريه : لست أدري إن كان هذا يمكن أن يُسَمَّى شجاعة. هو بالأحرى ضرب من الطاعة، شيء في أعماق نفسي منعني من توقيع ذلك النداء، شيء صدر عن مكان آخر، ربما من أعماق ما نسمّيه بالموت.. أنا لا أعتقد أنني أومن بالرب، ولكنني أفكر باستمرار في الأموات. ربما لأنهم يجتذبونني إليهم طوال الوقت، أقاوم بهذا الإصرار، وأريد البقاء في لهفة شديدة. أنا مزدوج الشخصية – ياعمي بسكال – مزدوج الشخصية، ومع ذلك فأنا نفسي دائما. ثم هناك شعور أحسست به – في قوة – منذ لحظة عند موريزو! قبح هؤلاء المتعصبين... أوه! أنا لا أقصد قبح الخلقة، فقد كان فيهم اثنان أو ثلاثة يتصفون – على العكس – بجمال كجمال الجنيّ، وكان بعضهم الآخر بشعا، ومعظمهم لا يكاد المرء يتذكر ملامحهم. كالحال في كل مكان.. ولكنه قبح غير مرئي، كما أنه ليس أيضا قبح نغمة نشاز. إنه قبح نتنفسه، أو بالأحرى، كلا، إننا لا نستطيع أن نتنفسه... ثمة ألفاظ لم يعد من الممكن استخدامها لأن الرومانتيكيين أفسدوها. مع ذلك ينبغي إخراجها من القبور: كلمة مظلم... مظلم... منذ لحظة كنت أوثر أن أُقْتَل على أن أوقِّع... ولكن الآن، بعد أن لم يعد أولئك الفتيان أمامي، فإنهم يبعثون في نفسي رعبا شنيعا. ولم أعد أستطيع الانتظار حتى أنتهي من هذا الكابوس... معذرة، يا عماه، فإن كل ذلك يبدو خاليا من الاتساق. هذا الخليط... ولكني، لم أعد أستطيع الاحتمال.. ولو لم أجد وسيلة للرحيل، فسأقتل نفسي.

بسكال : ولكنني كنت أعتقد أنك متأكد من قدرتك على الرحيل إلى أفريقيا الاستوائية...

مارك – أندريه : بالأمس بدا لي «لوقا» مراوغا. وأعتقد أنه لم يكن جادا في حديثه، ولم يعد واثقا على الإطلاق بأن والده سيكون متفقا معه على اصطحابي. وقد حدث شيء فريد في بابه.

فـإذا كنت عند «موريزو» منذ لحظـة، فربما كان ذلك لأن صوتا مخادعا في قرارة نفسي، كان يوحي إلي بألا أحطِّم الجسـور. وحين وجدت نفسـي في مواجهتهم، انعكسـت الآيـة فكأن شـيئا أقوى مني يرغمني علـى تحدّيهم.. آه، إننـي متعب يا عماه، لو كان لـك أن تعلم! ثمة «أنا» أخرى في نفسـي تحب أن تموت.. أن تمـوت حقا... في الحال، من دون اختناق بطيء... أو تسمم.. كلا، إطلاقا.. كل شيء مفضل على ذلك.

وأنت؟ أكاد أجرؤ على سؤالك.. هل اتخذت قرارا؟

بسكال : كلا، لم ينعقد عزمي بعد، فمازلت مع شكوكي وهواجسي. ولكنني في الوقت نفسه لكي أكون مخلصا تمام الإخلاص، ألاحظ أن شيئا في نفسي في سبيله إلى اتخاذ قرار، نيابة عنِّي.

مارك – أندريه : أهذا صحيح؟

بسكال : تقـول هذا مسـرورا! على حين أنه شـنيع... أشـعر بأن الانحـلال الذي أصاب بلادي قد أصبح الآن في نفسـي، وأنـه في سـبيله إلى بلـوغ غايته، وأنني أشـارك فيه. يا طفلي المسـكين، أنت تنظر إليَّ بعينـين مذعورتين، بعينين تسـتجديان.. لن أتخلى عنك يـا صغيري مارك – أندريه. ينبغـي الاعتقاد، إن كان لهذاه العبـارة معنى – وأنا أجهله – أنني مسـؤول عن حياتك، وأنني لا أستطيع أن آخذ على عاتقي تعريضك لليأس والانتحار. ولأنك جئت لتراني ذلك المسـاء الآخر، أنت يا من أراك نادرا.. أجل، أعتقد أن هذا نـوع من البرهان إلا إذا لـم أكن أتعلق بهذه الفكرة كذريعة لمحاولـة أن أبرّر إزاء عينيّ ما لا يقبـل التبرير... ولكني، لسـت أدري... قلت كلمة «مظلـم» حين تحدثت عن أولئك «الفتيـان – الذئاب» الذين ينتمون إلى عالم آخر لا اتصال بيننا وبينه، وأنا أقول ظلمات،.. ظلمات.. هذا هو العنصر

الذي أغوص فيه.

مارك – أندريه : إذن، فأنـت تريـد أن تقـول، يـا عمـي، ربما يكـون من الأشجع...؟

بسكال : (فـي حزن عميق) لـم أعد أعرف إطلاقا فـي أي جانب توجد الشـجاعة.. ولعل هذا هو أسـوأ مـا أجتازه الآن. وحين اسـتمعت إلى روبيـر منذ لحظة – بل لا أسـتطيع أن أقول حين اسـتمعت، فقد عانيت... أحسسـت أنه من الخسـة، بل من العبث تمامـا، أن أجرّد احتقاره من حدته بقولي: حسـن! سـأبقى. فهذا الاحتقار ينبغي ألا تكون له قيمة عندي أكثر مـن صرير باب أو دوارة هواء. ومع ذلك لـو أنني قررت البقاء الآن، لاقتنعت في قرارة نفسـي بأن بقائي هذا راجع إلى أنني أحسـب حسابا لذلك الاحتقار. وهـذا الموقف، أخذت أقلِّبه على جميع وجوهه منذ يومين. وهناك لحظات، وصلت فيهـا إلى النظر إليه من الخارج. وتساءلت إن كنت على استعداد للهرب والمعركة دائرة. ولكن كلا، ليسـت هذه إلا صورة لمعركة.. لقد انتهت اللعبة. أوه! إنـي أعرف جيدا! إني أناقض نفسـي، كم من مرة أعلنت مخلصا: القدرية جريمة، ومازلـت أعتقد أنها جريمة في الواقـع. ولكن هل العمى الإرادي جديـر بالاحترام؟ وقلت لنفسـي، مهما يكن من أمـر، لو أن الصـراع ظل ممكنا، فربما لم يكن كذلك إلا بشرط انتزاع النفس مما لم يعد – ويالـلأسف – سوى ديكور نُحبه على سبيل الاعتقاد المزيف ربما... وأقول ربما مادمت لم أعد أعرف أين الشـجاعة. أو حتى أين التضحية. أنت تفهم، يا مارك – أندريه، أنا لا أعرف ما سيبقى مني بعد ذلك الإبعاد هناك، لن أعرفه إلا فيما بعد، وربما كان ذلك لإدانة نفسـي. يا بنيّ، أقسم لك، إن افتقاري إلى الإيمان لم أحسـه قط بمثل هذه القسوة، فلـو أنني كنت مرتبطا، مرتبطا بالمسـيح، فلعل شـيئا من

النور يوهب لي وأنا لا أبصر شيئا.. ستأتي والدتك.. وهي وحدها في هذا العالم التي يمكن أن تؤثر فيما أجرؤ – في مشقة – على تسميته قرارا. وأنت أيضا تبدو معتلا، يا بني المسكين.. اذهب، فاستلق بضع دقائق في حجرة روجيه، فلن يعود من الليسيه إلا في الساعة السادسة. اذهب...

(يخرج مارك – أندريه)

المنظر الرابع

بسكال، ثم إستير

بسكال : (ذاهبا إلى الباب القائم في المؤخرة) صباح الخير، يا إستير. لقد تأخرت في رؤيتك مرة أخرى وكان في إمكاني أن أزورك.

إستير : كنت في الحي، فكان من اليسير عليَّ أن أمر. هل خرجتْ رينيه؟

بسكال : إلى ما بعد الظهر. إنها تدور على المحلات، وعلى وكالات السفر... أولا، مارك – أندريه. هل كلّمك عن محادثتنا؟

إستير : بضع كلمات فقط. ولكنك أثّرت فيه وإني لأشكرك من صميم قلبي.

بسكال : وا أسفاه! بل الأحرى أنه هو الذي مسّني في الصميم.. أجل، أماط عني اللثام... فمنذ تلك المحادثة، لم أعد كما كنت. هذا شيء لا سبيل إلى التعبير عنه. وفضلا عن ذلك، كأنما تجمد الناس الذين كنت أراهم لكي يتحولوا ضدي.. حمَوايَ أولا... بعض الكلمات التي نطقت بها ذلك اليوم، حين استمعتها تخرج منهم، وجدتها مضحكة، منقولة ليعزفها أرغن الهمجية... انظري، إن واحدة من المزايا غير المرغوب فيها والتي يملكها شخص مثلي هي

معرفة النفس والاستهزاء بها من خلال أنصاره.. ولكن ليس هذا هو كل شيء. وكم رأيت من أشخاص غير قابلين للتحول، ولا يقسمون إلا بما تعرفينه. وهم يتغذون على سوابق تاريخية وهمية، ويتحمسون للصيغ المتطرفة، وهم لا يتحصنون على «الأدور»(*) أو على جبال البرانس، بل على النيّجر(**) الأعلى، إن لم يكن على الأوبانجي(***). إنهم عاجزون عن التفكير في الحدث، بل يضعون في مكانه شبحا مستمدّا من التاريخ الحربي.

إستير : ومع ذلك، يا بسكال...

بسكال : أجل، اتفق معك، ربما كان من الضروري أن تبقى هذه الأوهام حتى النهاية. وربما كان هذا هو الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتخذه إرادة المقاومة عند أوساط الرجال. ثم إنني لست نبيا. وهناك احتمال واحد من ألف أن يرى هؤلاء الناس بوضوح. كل ما في الأمر هو أنني لا أستطيع أن أرغم فكري بحيث أصبح شريكا لهم. واعلمي يا إستير، أن الأمر ليس هو أنني لم أقرر شيئا على الإطلاق.. فمازالت القِطع هناك فوق رقعة الشطرنج، ولم ألعب دوري بعد.. لم أقرر شيئا، ولكنني أبحرت فعلا.. هذه تجربة غريبة، لم أجربها قط. إنها تحيرني، وتخزيني. وأنا أشبه حقا بمسافر صعد إلى ظهر السفينة عدة ساعات قبل الرحيل. فربما استولى عليه النعاس، أو استغرق في قراءة، فلم يسمع إشارة الرحيل، وفجأة، شاهد الشاطئ يتحرك وعلم أنه قد رحل.

(*) نهر يجري في الجنوب الغربي من فرنسا، وينبع بالقرب من «تورماليه».
(**) النيجر: نهر في غرب أفريقيا.
(***) الأوبانجي: نهر آخر في أفريقيا الاستوائية.

إستير : ما هذه السفينة؟ أهي مصيرك؟

بسكال : ربما، غير أن تشبيهي ليس دقيقا تمام الدقة، ذلك أنه يستطيع أن يهبط في المرفأ القادم، إن لم يلحق به شخص آخر...

إستير : ورينيه...

بسكال : رينيه والطفلان موجودون فعلا في القمرة (الكابينة)، فالأمر لا يتعلق بهم إذن.

إستير : ولكن ماذا؟

بسكال : (في حنان) لن أغادر فرنسا من دونك.. لا تسارعي إلى الاعتراض. أخطرك بأن مارك – أندريه سيكون في هذه الرحلة.

إستير : ماذا تقول؟

بسكال : إنه لا يستطيع البقاء هنا، وهذا ما تعرفينه كما أعرفه. أما فيما يتعلق بمشروعه للذهاب إلى أفريقيا السوداء، فيبدو أنه لن يتحقق. فلا أملك إلا أن آخذه معنا.

إستير : أتريد أن تقول لي إن هذا بسببه؟

بسكال : لن يكون ذلك صدقا. ومع ذلك فقد اكتشفت بيني وبينه تضامنا غامضا.. لست أدري ما هو، ولكني أعرف أن من واجبي الاعتراف به.. وقبل أن أوجه إليك سؤالا خطيرا جدا يجُبّ كل الأسئلة الأخرى، أريد أن أسألك: أتعلمين أن كارلوس كان يغازل زوجتي؟

إستير : تتذكر أنني في ذلك العالم لم أمكث سوى بضعة أيام في بيارتيز، ولكنني أعتقد أنني لاحظت...

بسكال : الآن... هذا الأمر خطير يا إستير. وأنت التي تعرفين رينيه دائما، ألديك من الأسباب ما يجعلك تفترضين أنها تستطيع...

إستير : يستحيل عليّ أن أجيبك. وأنت تعلم جيدا، أن رينيه لم تجعلني قط موضع ثقتها، ولم أقع مصادفة على شيء، فليس لدي من دليل.

بسكال : ألاحظ على الأقل أن أي احتجاج مباشر لم يصعد إلى شفتيك.

إستير : هذا شيء صبياني. أنت تعلم جيدا مثلما أعلم، أنه ما من شخص يستطيع أن يجيب نيابة عن شخص آخر.

بسكال : ومع ذلك، يبدو أنني أستطيع أن أجيب عنك.

إستير : آه. ربما كنت على خطأ، لأنني أعلم أنني مذنبة، وربما قلت لك يوما فيمَ كنت مذنبة، ولكننا نشرد عن الموضوع. أعود وأطلب منك أن توجه إليّ ذلك السؤال الخطير جدا.

بسكال : المسائل جميعا مترابطة. أسألك أن تخبريني من أعماق قلبك، هل تعتقدين أنني سأكون مذنبا برحيلي؟

إستير : (بصوت مرتعش) مذنب! بسكال، نحن جميعا مذنبون، مهما فعلنا.

بسكال : ولكن هذا الشعور بالذنب، ألا أضاعف حِدّتَه برحيلي؟ ألا يعدُّ البقاء تكفيرا؟

إستير : أأنت واثق بقدرتك على إعطاء معنى لهذه الكلمة؟ ألم تنتقل إليك بالوراثة مع كثير غيرها مثل تلك السندات الأجنبية التي نعثر عليها في درج من الأدراج، غير أن قيمتها قد هبطت إلى الصفر؟

بسكال : قيمتها؟

إستير : قيمتها بالنسبة إلينا، يا بسكال. إنها الشيء الوحيد الذي يدخل في الحساب، إذا كنا غير مؤمنين.

بسكال : أهذا شيء أكيد؟ كثيرون سيوجهون إليَّ اللوم. أعرف ذلك، وتعرفينه أنت أيضا. هل أستطيع التظاهر بأن هذا الاستنكار خليق بالإهمال؟

إستير : ربما كانت الشجاعة تتألف من الحكم عليه – في الواقع – على هذا النحو.

بسكال : ولكن، هذه الـ «ربما» مخيفة! أما من وسيلة لمحوها، ولأن نكون على يقين؟

إستير : لا أظن. فهنا، مثلما في أي شيء آخر، لا بد من المخاطرة.

بسكال : لو استطعت، على الأقل، أن أكون واثقا بأنك أنتِ نفسك..

إستير : ماذا؟

بسكال : لن تدينيني.

إستير : (في عمق) كيف أدينك مادمت أحبك؟ أجل، لقد كنت جبانة ذلك اليوم حين حاولت تأجيل الاعتراف الذي انتزعته مني عاطفة مباغتة. إني أحبك. أحبك منذ أن عرفتُك. وأنا مذنبة حين أقول لك ذلك. ولعلي أكون أكثر ذنبا لو لم أقل لك ذلك. لست أدري، فليس عليّ أن أختار الشعور بالذنب الذي أرتاح إليه. نحن في اللحظة الحاسمة من وجودنا، وأنت تعرف ذلك مثلي. والتحفظ والحياء قد أصبحا وراء ظهرينا. أنا أعلم أنني أستسلم لدوار، وهاأنذا أستسلم له في وضوح تام.

بسكال : ولكن، يبدو لي أنك تغيرتِ. كنت تحكمين بقسوة على من يرحلون، وكنت تتَحدثين عن القرار...

إستير : وكنت على صواب، بلا شك.

بسكال : ثم ماذا حدث بعد؟

إستير : أعتقد أن هذا الرحيل هو، في وقت واحد، خطأ وعقاب على هذا الخطأ. ومع ذلك، لن يكلفني البقاء إلا أقل القليل، كما ترى. ذلك أنني أستطيع – بفضل طبيب صديق – أن أضع نهاية لحياتي حالما أريد، لأنني لا أتصور الرب «ناظرا لمدرسة»، كما لا أتصوره مُعَذِّبا. ولكن لأنه من اليسير عليَّ

البقاء، ولأنني أستطيع أن أكون في وفاق مع ضميري، لهذا السبب المحدد، لن أتخذ ذلك القرار بالرحيل. أو لعلني أحاول استبقاءك، وأنا أعلم أن ذلك ليس من حقي...

بسكال : لماذا، يا إستير؟

إستير : لا يستطيع المرء أن يبقى إلا لأداء رسالة. بيد أن هذا النداء أنت لا تسمعه، أو لعلك لم تعد تسمعه أو قد أدعك ولكن لماذا؟ لكي أستمتع بشعور التفوق؟ يا لها من سخرية. كلا لست على هذا النحو. كل ما في الأمر أنه ينبغي مواجهة الأشياء.. أولا، هل أنت على استعداد لفرض وجودي على رينيه وعلى أصدقائك؟

بسكال : إنهم ليسوا أصدقائي. وإذا صدقنا ما يكتبون فهناك مساكن رحبة.. أما فيما يتعلق برينيه، فهذا هو الشرط الذي سأضعه لرحيلي. بيد أنك قلت جملة أريد أن أفهمها: إن هذا الرحيل هو، في وقت واحد خطأ وعقاب على ذلك الخطأ. أتراني سمعتُ جيدا؟

إستير : أجل يا بسكال، وأنا واثقة – لسوء الحظ – بأن الأمر على هذا النحو. فليس في مقدورنا أن نغادر هذه البلاد بقلب خال، وأن نندفع يملؤنا الأمل نحو سراب لا ندري كنهه، بفكرة حياة جديدة في عالم جديد. ولو كان مثل هذا الرحيل ممكنا – وأنى لنا أن نعرف؟ – فلعله لن يكون إلا بعد الموت. ومن هذه الناحية، نحن الذين لم نتطهر، ليس لنا أن نتوقع العدالة. نحن ملوثون يا بسكال، وهذا الرحيل نفسه ليس إلا دنسا. هذه الحقيقة، أطالبك – كما أطالب نفسي – بأن تنفذ إلى أعماقها.. هذه بداية الموت.

بسكال : الدنس... الموت...

(يُخلدان إلى الصمت)

المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، ومارك – أندريه، ثم رينيه

إستير : كيف! كنت هنا، يا بنيّ؟

مارك – أندريه : ألم يخبرك عمي بسكال؟

بسكال : خشيت أن أسبب لأمك انفعالا لا جدوى منه، فلتقص عليها أنت (ينظر إليها) هذا غريب، فأنا أعتبركما وإياي أسرة واحدة، نحن الثلاثة... ومع ذلك سوف تعود رينيه بعد قليل، وهناك الواجبات الأخرى...

مارك – أندريه : لقد فكرت طويلا منذ لحظة، وفجأة راودني خوف... تشكك... وأحب أن أتخلص منه.. أولئك الذين يذهبون هم الممتازون، أما الآخرون، أولئك الذين لا يملكون وسيلة للذهاب...

بسكال : أجل، بكل تأكيد، هذا فظيع.

إستير : هذا التشكك الذي تود أن نحررك منه، عليك أن تحمله على كتفيك. لقد قلت لبسكال منذ لحظة، إن أحدا منا لن يرحل إلى هناك بقلب خال...

رينيه : (تدخل كلفحة الريح) إني مغتبطة بجولاتي. لقد اكتشفت حانوتا على الضفة اليسرى حيث تباع بعض السلع بسعر زهيد.. حقائب جلدية مهربة من إسبانيا... طيب! ماذا أصابكم؟

بسكال : (في مرارة عميقة) قلب خال، وسراب حياة جديدة.

* * *

الفصل الرابع

منزل ريفي صغير في البرازيل. حجرة واسعة مضيئة في هذا المنزل الذي يملكه آل مارتينيز. وفي مؤخرة المشهد يبدو صحن الدار.

المنظر الاول

شفرمون، ورينيه، ثم كارلوس

شفرمون : كلا، يا سيدتي العزيزة. لا أستطيع أن أقول – بكل صراحة – إنني قد افتقدت باريس حقيقة يوما واحدا طوال تلك الأعوام. وأنا لا أحدثك عن صديقين أو ثلاثة من الأعزاء عليّ.. هم ثلاثة على وجه التحديد مازال اثنان منهم في السجن، والثالث كان...

(يأتي بحركة)

رينيه : ولا يوما واحدا! إنك تدهشني.

شفرمون : كلا، فمنذ أن سُلّمت باريس إلى تلك العصابة من اللصوص وشركائها، نَزعّتُ منها عقلي وقلبي كليّةً. هذه قدرة أملكها. والحقيقة أنني لا أشعر بتاتا بأنني هنا في المنفى.. ليس أكثر مما كنت في مدريد سنة ١٩٤٥.

رينيه : هذا شيء تُحْسَد عليه، ولكنني كنت أعتقد.

شفرمون : (من دون أن يصغي إليها) إنني أتابع من كثب ما يحدث هناك في الفن والأدب. فللصحف هاهنا مراسلون يحسنون نقل المعلومات. كل هذا يبدو لي منفرا خاليا من المعنى. وقد أبعث في نفسك مزيدا من الدهشة حين أقول لك إنني أكاد أختال من فكرة الحكم بإعدامي غيابيا على أيدي أولئك الناس هناك.

رينيه : أصحيح هذا؟

كارلوس : (مقتربا) مازلت تتحدث عن الحكم بإعدامك، إنك تتشدق يا أرمان. أما أنا، فإن مجرد التفكير في إعدام ظلي بالمقصلة يبعث في نفسي شعورا بغيضا.

شفرمون : الإعدام رميا بالرصاص، يا كارلوس. وقلما أعبأ بما يحدث لظلي. فلنقل إنني أفتقر إلى الخيال.. ومع ذلك، فليست هذه هي الحالة. سرني أن أتخيل ذلك الرهط الصاخب الذي يأتي إليّ ملوّحا بقبضته، أو باصقا على وجهي، لو كنت من الحماقة بحيث أمد عنقي لذلك الاغتيال الشرعي.. الشرعي؟ كلا.. غير الشرعي.

كارلوس : (مخاطبا رينيه) إنه شخصية، أرماننا هذا.. ومع هذا كله، فأنت تتحدث كثيرا عن الحكم بإعدامك.. ولو كنت على هذا القدر من اللامبالاة التي تزعمها، لأقللت من حديثك عنها.

شفرمون : لم أتحدث عن اللامبالاة... بل إني أتلذذ بها.

كارلوس : في غير صمت، على كل حال...

شفرمون : إن السيدة لوميير مضطربة تماما.

رينيه : هذه أول مرة أجد فيها نفسي إزاء محكوم عليه بالإعدام.

كارلوس : من الأفضل أن تسكت يا صديقي العزيز! إنه ليس حكما حقيقيا بالإعدام.

شفرمون : إنك تسيء إليّ في هذه اللحظة.

رينيه : ولكن... أحذرك بأنني سأتكلم بصراحة قاسية. فالأفعال التي اتهمت بها، وكانت دافعا إلى إصدار هذا الحكم، ألم يحدث لك مطلقا أن عَانيّتَها؟

شفرمون : أرجو ألا تقدمي على نطق تلك الكلمة المخيفة: تأنيب الضمير؟

رينيه : إني أفكر في ضروب من الأسف...

شفرمون : هذه حالات للنفس ينبغي أن نتقيها كما نتقي نزلة البرد.

كارلوس : وقد لا نستطيع دائما.

شفرمون : البرد، ربما، أما الأسف، وعلى الأخص تأنيب الضمير، فهذا شيء نستطيعه.

رينيه : أنت تملك قدرا كبيرا من القوة الباطنية.

شفرمون : إني أنتمي إلى عالم مازال فيه رجال.

رينيه : إن زوجي يستخدم هذه العبارة في كثير من الأحيان، ولكني أتساءل، إن كان يستخدمها بالمعنى نفسه.

شفرمون : (باحتقار) هذا شيء قليل الاحتمال.

كارلوس : لوميير شخص جذاب على كل حال.. كانت إينيس مولعة به.

شفرمون : أيها المتهور!

رينيه : لا أهمية لذلك على الإطلاق.

شفرمون : أرأيت!

رينيه : لا تحاول الفهم. وفضلا عن ذلك ينبغي ألا يكون علم النفس معقلك.

شفرمون : إنها محبوبة!

رينيه : ومع ذلك، فأنت لا تملك كل أنواع التفوق.

شفرمون : ولماذا، على كل حال؟

رينيه : (إلى كارلوس) هذه ظاهرة.

شفرمون : (ناهضا) سأذهب لأرى إن كانت طائرة البريد قد وصلت. إلى اللقاء قريبا.

(يخرج)

المنظر الثاني

كارلوس، ورينيه

كارلوس : والآن! ماذا تقولين عن هذا الرجل؟

رينيه : إني متحيرة نوعا.

كارلوس : إنه لا يشبه أحدا، وهذا ما أعجبنا منه على الفور.

رينيه : لا أستطيع أن أقول إنني أستلطفه تمام الاستلطاف.

كارلوس : ولِمَ؟

رينيه : لأنه شديد الثقة بنفسه.

كارلوس : ألا يقال ذلك أيضا عن بسكال؟

رينيه : أوه، بسكال، إنه..!

كارلوس : سأقول لك بصراحة، إنه يثير الانقباض في نفسي.

رينيه : حقا؟

كارلوس : يشعر المرء في حضوره دائما بالرغبة في توبيخ نفسه، وأنا أكره هذا الشعور. أوه. ولكن من المفهوم، على الرغم من ذلك، أنه شخص لطيف جدا وعلى جانب كبير من الثقافة.. ثقافة.. أليس عضوا في أكاديمية سانت - بيف؟

رينيه : ليست الثقافة هي ما ينقصه، في الواقع.

كارلوس : لماذا تتنهدين يا صديقتي الصغيرة؛ الثقافة شيء جميل جدا.. إينيس وأنا في حالة إعجاب بها.

رينيه : أما أنا، فلا.

كارلوس : ولكن، من المستحسن أن تسكتي! كل ما قرأه هذا الرجل، وكل ما وعاه...

رينيه : مجرد إسفنجة.. حين نضغط عليها، تخرج الاستشهادات...

كارلوس : إنه يخلو من كل تحذلق. ثم، لا أهمية لهذا كله، في نهاية

الأمر. ولكني أريد أن أعهد إليك برسالة إليه، مسألة على شيء من الدقة.. فأنا لا أعرفه جيدا بحيث أستطيع أن أنقلها إليه مباشرة... إن غيابه من قداس الأحدَيْن الأخيرَيْن كان ملحوظا جدا.

رينيه : بسكال لا يضع قدميه إطلاقا في الكنيسة.

كارلوس : أليس كاثوليكيا، على كل حال؟

رينيه : بالمولد.. أوه! وقد أدّى تناوله الأول...

كارلوس : من حقه أن يفكر في أعماق نفسه بما يشاء، أنت تفهمين جيدا، ولكننا في هذه البلاد نعلق أهمية قصوى على بعض الشعائر. ويجب أن أخبرك أنه إن لم يذهب بانتظام إلى القداس في سان - فيليب أيام الآحاد، فلن يتمكن من التدريس.

رينيه : (بعد فترة قصيرة من الصمت) أنا أرى أن هذا الأمر - في جوهره - حسن جدا.

كارلوس : أنا لا أعرف إن كان هذا حسنا جدا، فأنا بالأحرى متحرر، كما تعلمين، وهي كلمة لم تعد مطابقة لذوق العصر. ولكن الأمر على هذا النحو، في هذه البلاد. الأمر يختلف في ريو. فلأنها مدينة أكبر كثيرا...

رينيه : أود أن أعرف، ما الحاجز الذي يمكن أن نضعه - عدا الكنيسة - في معارضة الشيوعية. ثم إني أعتقد أنه في اللحظة التي نَقْبَل فيها ضيافة بلد ما، ينبغي علينا أن نتوافق مع تقاليده. إنها بكل بساطة مسألة أدب. وأنا لا أحب الأشخاص الذين لا يراعون اللياقة.

كارلوس : أنت في كامل الاتزان، يا صديقتي الصغيرة.. حاولي أن تشرحي له.

رينيه : لعلك لاحظت أنني لا أملك أدنى تأثير في زوجي.

كارلوس : يخطئ خطأ كبيرا حين لا ينصت إلى كلمة تخرج من هذا الثغر الشهي!

رينيه : لا أظن أنه قد وجه – قط – التفاتا كبيرا إلى ثغري.

كارلوس : يا للعار!... ثمة موضوع آخر ينبغي أن أتناوله، ولكن يجب عليّ أن أقول إنه أكثر دقة.

رينيه : فلتحاول على كل حال...

كارلوس : يتعلق الأمر بإظهار بعض المشاعر بالنسبة إلى الرأي العام.. إنه شيء مرهف إلى أقصى حد في هذه البلاد. وكلمة «رأي» غير مناسبة تماما. . إنه نوع من الحساسية.. أشبه باللوحة الفوتوغرافية. من المفهوم أننا كنا سعداء جدا باستقبال أختك وابن أختك الفاتن الذي وقعت ابنة أخي تيريزا في غرامه فعلا. ولكن...

رينيه : استمر. لقد راودني الشك في أمر ما...

كارلوس : تلك النزهات التي يقوم بها زوجك كل مساء مع شقيقتك..

رينيه : (مصححةً) مع أختي غير الشقيقة.

كارلوس : ما علينا.. لقد أثارا هاهنا دهشة معينة.. أحسست جوانب عديدة. وإنه لشيء مضحك بالتأكيد.. ولكن قد يكون من التهور – على ما أعتقد – ألا يراعي المرء تلك الآراء، مهما تكن صبيانية. أيضايقك حديثي يا صديقتي الصغيرة الساحرة؟

رينيه : كلا، استمر.

كارلوس : أريد أن أُفضي إليك على الفور بأساس تفكيري. لا يبدو لي مستحسنا أن تقطن أختك معكم في سان – فيليب.. لقد حدثت فضيحة هنا ذات يوم.. بالطبع أنا لا أوجه أي اتهام.. بيد أننا لا نستطيع أن نمنع الناس من تذكر حكاية جوزيه دي كاسترو..

رينيه : أوثر ألا أعرفها.

كارلوس : لم يكن في نيتي أن أقصَّها عليك.

المنظر الثالث

الشخصان أنفسهما، وبسكال

بسكال : (في عصبية شديدة) هل خرج؟

كارلوس : عمن تتحدث؟

بسكال : عن صديقك شفرمون.

رينيه : أرجوك يا بسكال!

بسكال : من المستحيل ألا تفهم ما أشعر به في حضور شخص قد وشى بفرنسيين في أثناء الحرب.

كارلوس : أطلب منك بإلحاح يا صديقي العزيز أن تعتبر هذه المسألة منتهية.

أنا أجنبي – بكل تأكيد – وليست لي أي صفة تسمح لي بالتدخل في هذه المسائل.. ومع ذلك، من حقي أن أقول إن الفظائع كانت ترتكب من كل جانب، ومن بين هؤلاء الفرنسيين الذين قلت إن شفرمون قد وشى بهم، كان هناك أشخاص لو أنهم عاشوا، لما أحسوا بأي تردد في قتل، بل في تعذيب خصومهم. الحكمة في أن ننسى – هذا ما أؤكده لك – بل أكثر من الحكمة. لن ألجأ إلى الإنجيل، مادمت لا تمارس واجباتك الدينية على ما أظن، ومع ذلك... أرجو المعذرة، إذ ينبغي أن أترككما بضع لحظات. ولكن، أرجوك – يا صديقي العزيز – أن تهدئ من روعك.. هل تعرف ما إذا كانت زوجتي عادت؟

بسكال : كنا نتمشى معا منذ لحظة.. ويبدو لي أنها تفهم حالتي النفسية تمام الفهم.

كارلوس : إنها تفهم بكل تأكيد، إينيس تفهم كل شيء. وأنا – أيضا – أفهم. ولكن، أمن المغالاة أن أطلب منك التخلص بعض الوقت من تركة الحقد والبغض التي حملتها معك من أوروبا؟ أظن، أن لا... إلى الملتقى يا صديقيَّ العزيزين.

المنظر الرابع

بسكال، ورينيه

رينيه : أنت مجنون تماما. هذه الطريقة في شكر أصدقائنا الرائعين على كرم ضيافتهم شيء لم يُسْمَع به من قبل.. ثم، عندما أتذكر ما كتبته بنفسك في مقال...

بسكال : عفوا، قلتُ دائما إني أعتبر الوشاية جريمة لا تغتفر، الجريمة الوحيدة التي لا تستحق أي شفقة.

رينيه : لستَ مسؤولا عن إقامة العدالة هنا. وأفكارك لا تهمُّ أحدا.. نحن لاجئون.. فلنقل لاجئون قبل حالتهم النهائية.. وهذا وضع يتطلب التواضع واللباقة.

بسكال : إن كلمة «لاجئون» هذه تُرَوعني.

رينيه : ألعلك تحاول إقناع نفسك بأنك سائح أو محاضر في جولة؟

بسكال : كفى.

رينيه : هذا شيء خارق للمألوف! منذ أن حضرت هنا، وأنت تتحدث كما يتحدث رجال المقاومة، والوطنيون.

بسكال : أنت لا تفهمين شيئا.

المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، وإينيس

إينيس : إني حزينة أشد الحزن لما حدث.

بسكال : لم يحدث شيء. عبرتُ بشيء من الحِدة عن شعور لا سبيل إلى التغلب عليه.

إينيس : لا تقل «لا سبيل إلى التغلب عليه»، بل يجب التغلب حقا. لقد نقل إليَّ كارلوس كلمة، ولكنني رأيت أنه يجد مشقة،

وأنا أكره أن يجد مثل هذا... إنني أهيب بعطفكما الكبير... شفرمون... أنا لا أجادل.. قد تكون له أخطاء خطيرة جدا، هذا محتمل.. ولكنه إنسان تعس جدا.

بسكال : يبدو لي أنه راض تمام الرضى عن حالته.

إينيس : إنه يكابر، ولكني أؤكد لكما أنه يتعذب كثيرا. إنه لا يملك شيئا من المال، كما تعلمان، ولا يستطيع المرء أن يعطيه شيئا، لأنه شديد الكبرياء.. ربما وجدنا له شيئا في فنزويلا. كتبنا إلى أصدقاء لنا في كاراكاس. ولكننا، في انتظار الرد، أرجو أن تتحملا.. وإلا أصبح الوضع عسيرا غاية العسر، ينبغي أن أذكِّركما دائما.. لسنا هنا في أوروبا.

رينيه : ولهذا السبب أتينا.

إينيس : ثمة شيء من أوروبا يلتصق بنعال أحذيتكما. ولكن أرجوكما أن تمسحا أقدامكما بعناية، وكأنما تدخلان حجرة أرضيتها من الباركيه المدهون جيدا – عندما تمتلئ الشوارع بالأوحال.

بسكال : (بصوت خفيض) هذا فظيع.

إينيس : كلا، إنه ليس فظيعا، يا صديقي العزيز .. إنها مسألة نظافة، لا غير. أعرف أن هذا عسير. وقد وجد شفرمون هو أيضا شيئا من العناء في البداية.

بسكال : وهكذا، في رأيك، أن الحالتين متماثلتان؟

إينيس : إنهما شيء واحد تماما... أرجو المعذرة، إني أرى أنني أجرحك. ولكنني لا أعقد مقارنة أخلاقية بينك وبين هذا الرجل الذي لا يعجبك. الرب وحده قادر. ولكن، أحقا أنك لا تؤمن بالرب؟ هذا محزن جدا، ويسبب لي شقاء شديدا.. كل ما أريد أن أقوله هو أنك دخلت عالما ينبغي أن تفكر فيه على نحو آخر.. ينبغي أن تلتفت صوب المستقبل... هنا حقا بلاد المستقبل.

بسكال : أي مستقبل؟ وبالنسبة إلى شفرمون..

إينيس : يـا لأرمان المسكين! سيموت قريبا، إنه مصاب بذبحة صدرية، أتعرف ذلك؟ تستطيع إذن أن تصبر قليلا جدا... عليّ أن أعلن لك زيارة ربَّما لا تسرك كثيرا.. ولكنه يحرص على مقابلتك، ولم أستطع أن أقول له.. على العكس، أكدت له أنك ستغتبط بمعرفته.

بسكال : ولكن، عمن تتحدثين؟

إينيس : بكل بساطة عن الأب ريكاردو رئيس الدير القائم هناك على قمة الجبل. إنه واحد من أصدقائنا الكبار..

بسكال : ولماذا يود أن يراني؟

إينيس : (مرتبكة) لست أدري بالضبط. إن لديه – بالتأكيد – سؤالا يريد أن يوجهه إليك، أو ربما كان اقتراحا يريد أن يعرضه عليك. لستَ على كل حال من أولئك الرجال الذين يلوذون – بالفرار عند رؤية طيلسان الكاهن؟

رينيه : (في حماس) لم يكن بسكال معاديا قط لرجال الدين.. ولكن، ربما كان في سبيله إلى أن يصبح كذلك.

بسكال : ولكن، في أي لحظة ينبغي أن يأتي؟

إينيس : كنت أعلم أنك ستكون هنا بعد الظهر. وسيأتي في هذا الوقت ومعه كارلوس.

بسكال : هذا ما يسمونه وضع السكين على العنق.

إينيس : إن لك – يا صديقي العزيز – طرائق غريبة في التعبير عن نفسك.

رينيه : لا بد أن أطلب منك – مرة أخرى – التماس العذر له. (إلى بسكال) أتوسل إلى صديقتنا أن تستخدم تأثيرها فيك، لمساعدتك على أن تصبح مرة أخرى شخصا مهذبا. أما أنا، فأتنازل عن هذه المهمة. إلى اللقاء.

(تخرج)

المنظر السادس

إينيس، وبسكال، ثم الأب ريكاردو

إينيس : لعلني أخطأت، ولست أريد أن أكون غير مهذبة، بيد أنني أخشى أحيانا أن تعاني رينيه مشقة.. من المحزن حقا بالنسبة إليها أن تنفصل عن والديها اللذين لن تراهما – بلا شك – مرة أخرى في هذا العالم، وعن كل أصدقائها، وعن تلك الحياة في باريس التي أحبتها كل ذلك الحب. أما بالنسبة إلى رجل من رجال الفكر مثلك، لديه كتبه وتأملاته، فالأمر أقل عناء. إنه امتحان قاس بالنسبة إليها خضعت له من أجلك، وفي هذه الأحوال ينبغي أن تفعل كل ما في وسعك، لتخفف عليها الإقامة...

بسكال : أخشى ألا تكوني قد تلقيت معلومات صحيحة تماما. فلقد كانت زوجتي – على العكس من ذلك – هي أول من أرادت الرحيل. ولو كنت وحدي، لكان من المؤكد تقريبا ألا أغادر فرنسا.

إينيس : ولكن ليس هذا على الإطلاق ما تركتني رينيه أفهمه. آه! هاهو الأب ريكاردو.

المنظر السابع

الأشخاص أنفسهم، والأب ريكاردو

الأب ريكاردو : أرجو المعذرة يا سيدي على إزعاجك، غير أن السيدة مارتينيز قالت لي إنه من الممكن أن أسمح لنفسي...

إينيس : سيكون السيد لوميير سعيدا جدا بالتحدث معك بضع لحظات، أليس كذلك؟ إني أترككما.

(تخرج)

بسكال : (بلهجة المغلوب على أمره) آسف – يا أبتاه – لأنك تجشمت عناء الحضور إليّ. وكان من الأيسر عليّ أن أزورك.

الأب ريكاردو : ولكن، ربما عانيت شيئا من النفور إزاء الأماكن الكهنوتية.

بسكال : نفور؟ كلا. بالطبع، فإن لي أصدقاء من الدومينيكان واليسوعيين في باريس.

الأب ريكاردو : أقمتُ طويلا في باريس، كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى.

بسكال : (في لهجة ارتياب) وهل أعجبت بها؟

الأب ريكاردو : أعجبت – كما تتوقع بحق – بالروائع الفنية التي تكدست فيها على مدى القرون. لسنا همجيين يا سيد لومبير، وإن كانت صحفكم ومجلاتكم تنشر أحيانا عن بلادنا تعليقات تؤلمنا أكثر مما تجرحنا. غير أن الإعجاب الذي أحسست به امتزج بقلق شديد... كان ذلك العهد هو عهد الجبهة الشعبية، يا سيد لومبير. أتأذن لي بأن أسألك؟ ولكن، كلا هذا السؤال لا جدوى منه. فإن عقلا ممتازا مثل عقلك لا يمكن أن يخضع لإغراء تلك الغوغائية.

بسكال : كانت السياسة تبعث دائما النفور إلى نفسي. واليوم، أراني ألوم نفسي على ذلك النفور.

الأب ريكاردو : لو لم يكن الأمر بعيدا عن اللياقة، لأحببت أن أسألك: فيمَ تكمن أخطاؤك بالضبط، وفقا لتقديرك أتريد أن تقول إنه كان ينبغي عليك المشاركة على نحو أنشط في الدفاع عن النظام؟

بسكال : (في حيوية) كلا، بكل تأكيد، فليس لي روح الشرطي... كلا، لكن الأحرى أن أقول إنني أخذت حينذاك، في يسر شديد، نصيبي من الظلم الاجتماعي في زمن كان فيه من الممكن بالعزيمة الصادقة مكافحة ذلك الظلم كفاحا مفيدا بلا شك.

الأب ريكاردو : الظلم الاجتماعي؟ هذه كلمات صحافي أو محام، ولكنها تصدم قليلا حين تخرج من فم رجل مثلك.

بسكال : أنا لا أفهم، أو بالأحرى، إنني أفهم أكثر من اللازم. أعترف لك يا أبتاه، بأنني منذ أن أتيت إلى هنا، اتخذت بعض الألفاظ التي طالما ارتبت فيها، رنينا غير متوقع.. أوه لاحظت ذلك في الشرق، يبدو لنا البؤس أشد وضوحا حين نسافر إلى أرض أجنبية. ففي بلادنا، تكون عادتنا، وعملنا على الأخص، أشبه بغلاف واق يعمي الأبصار. إن وضوح الرؤية لا يكون ممكنا إلا إذا دفعنا الرحيل عن الأوطان ثمنا له.

الأب ريكاردو : لستُ على مثل يقينك يا سيدي العزيز. فأنا أخشى ألا يكون المسافر من وجهة نظري سوى مخبر صحافي – مخبر صحافي مبتدئ. وحتى المخبرون المحنكون لا يفهمون شيئا مما يشاهدون. بل يقال إنهم حين يكونون بعيدا يفرزون أحكاما مسبقة كانوا منزهين عنها في بلادهم.

بسكال : أحكاما مسبقة؟... (محاولا السيطرة على نفسه) إنك تتحدث بلغتنا على نحو ممتاز، يا أبتاه.

الأب ريكاردو : تلقيت الشطر الأكبر من دراساتي في كلية جزويت فرنسية.

بسكال : قلت لك من قبل إن لي الشرف بأن يكون لي أصدقاء بين الآباء الجزويت (اليسوعيين)

الأب ريكاردو : من الممكن أن نخشى لسوء الحظ – وأستطيع أن أتحدث عن هذا الموضوع بحرية لأنني لا أنتمي إلى «الجماعة» – أن تتعرض وحدة هذه الجماعة للخطر. إن معلومات دقيقة تصل إلينا عما يجري في فرنسا، وكان ارتياحنا عظيما حين علمنا بالتحذيرات الجدية التي وجهت في الأيام الأخيرة إلى أولئك اللاهوتيين الطائشين الذين تؤدي تعاليمهم الهدامة رأسا إلى الإلحاد.

بسكال : لست لاهوتيا، أو حتى فيلسوفا، ومعرفتي هزيلة بالمذاهب التي تشير إليها.

كل ما أعرفه هو أنني التقيت في تلك الطوائف برجال على درجة كبيرة من تفتح العقل.

الأب ريكاردو : إن ما تسميه تفتحا للعقل يمكن أن يكون ثغرة نفذ منها كثيرٌ من الأخطاء. فهنا، في هذه البلاد القائمة عبر الأطلنطي، نرى أن مهمتنا هي تحصين العقول ضد هذه الأخطاء التي أدينت حديثا جدا، وتعاليم الأدب التي أشاروا بها عليك بتوصية أشخاص من الصفوة مثل كارلوس مارتينيز – هذه التعاليم قُدّر لها في تفكيرنا أن تكون بمنزلة معقل ضد تلك الأخطاء البغيضة التي قادت أوروبا إلى حتفها.

بسكال : (في جفاء) بوصفي مؤرخا للأدب، وللشعر وللرواية، لا أرى فيمَ يمكن أن أؤكد هذا الدفاع.

الأب ريكاردو : أنت تدهشني يا سيدي العزيز. في الصراع المكشوف بين الروح القُدُس والقوى الشيطانية التي انطلقت من عقالها في العالم، لا يمكن أن يقوم ثمة حياد في أي مجال كان، ولاسيما في المجال الذي تسميه بمجال الأدب. ولا يكفي أن يقتصر الأمر أو أن يكون الغرض الرئيسي هو مجرد العرض، بل ينبغي أن نحكم.. أن نحكم وفق معايير ثابتة. وقد كنت أنا نفسي مشغولا بأدبكم، فكتبت مؤلفا صغيرا عن «فيّو» العظيم الذي كان دليلا على وضوح في الرؤية عجيب في زمانه. ينبغي أن نعمد إلى مراجعة الأحكام في ضوء الأحداث المعاصرة كما ينبغي أن نتخلص من ذلك التساهل المجرم الذي أبداه الناس نحو أولئك الذين حطموا الإيمان، وفتحوا الطريق المؤدية إلى الفوضى. وقد أكدوا لي أنك تنوي محاضرة طلابك عن «جيد» و «بروست»، وعمن لا أدري؟ .. وعلى فرض أنهم خولوك هذا الحق – وهذا ما كلفتُ بإبلاغك إياه صراحة – فسوف يكون ذلك بشرط

رسمي، وهو أن تكشف عن الأخطاء، وعن الفظائع التي تحفل بها كتاباتهم. أنا أتحدث بالسماع، فإن عندي ما هو أفضل من دس أنفي في تلك الأقذار. ولكني في الحقيقة لا يساورني قلق. فإن وجودك هنا، بيننا يثبت إثباتا كافيا أنك معنا في هذا الصراع العظيم.

بسكال : معكم؟

الأب ريكاردو : لن أجرحك باعتقادي أن رحيلك كانت تمليه دوافع شخصية بحتة. فإذا كنتَ قد غادرت أوروبا، فذلك لأنه لم يعد من الممكن مواصلة ذلك الصراع فيها مع أي فرصة للنجاح.

بسكال : (في سخرية مُقَنَّعة) ألا تعلم – يا أبتاه – أنك تثيرني فيما يتعلق بنياتي الخاصة؟

الأب ريكاردو : هذا المناضل العنيد، هو ذلك الرجل الذي استقبلناه بين ظهرانينا، كل ما في الأمر هو أن للمعركة قواعدها التي ينبغي أن يخضع لها الجندي. وهذه القواعد لا يمكن أن تصدر إلا عن أعلى سلطة، أعني الكنيسة. ولقد سمعت أن ممارستك للشعائر الدينية كانت مهتزة قليلا في الأيام الأخيرة. عليك أن تشرح ذلك على كرسي الاعتراف. أنا لا أصر، فهذا أمر غير لائق. ولكنني أريد – بصورة مطلقة – أن نشعر بأننا على اتفاق تام. وأكرر لك أنني لا أطالبك بالإفضاء بشيء عما تعانيه أو عما لا تعانيه. فأنت تعلم مثلي أن هذا لا أهمية له على الإطلاق. فحين يكون الجندي في الخدمة، لا نهتم كثيرا بعواطفه، أو بردود أفعاله.

بسكال : (في حدّة) يا أبي، هناك سوء تفاهم مخيف بيننا. إني لم أختر ما هو ضد الحرية.

الأب ريكاردو : ما الذي تسميه بالحرية؟

بسكال : كما أنني لم أختر ما هو ضد الحقيقة.. وهما – في نظري – ممتزجتان.

الأب ريكاردو : لن أطلب منك أن تشرح ما تعنيه هاتان الكلمتان. فمن الممكن أن يؤدي بك ذلك إلى ضـــروب غريبة من الجهر بالإيمان. وأسلّم بكل بساطة بأنك لكونك فرنسيا لم تستطع أن تقاوم إغراء نفخ هذه الألفاظ الرنانة في أذني، تلك الألفاظ التي وجدت لديكم دائما كثيرا من الأصداء منذ أن نأت بلادكم التعســـة عن التراث الديني. وإنــك لتذكرني بطفل صغير يقـــرع الطبل. أجل، الأمر على هذا النحو تماما. وأنت في هذه اللحظة شـــديد الانفعال، ولكنك ســـتعود إلى مشاعر أكثر اتزانا.. وفي هذه الحالة، اعتمد كثيرا على الضرورة. إلى متعة لقائك مرة أخرى، يا سيدي العزيز.

(يخرج)

المنظر الثامن

فترة صمت طويلة

بسكال : (مناديا) إستير! إستير!

مارك – أندريه : (داخلا) لم تعد أمي بعد. ماذا أصابك يا عماه.

بسكال : إن الكلّابة تزداد ضغطا.

مارك – أندريه : أؤكد لك أنني لا أفهم.

بسكال : ولكن كلا، أنت فاهم!... الغرباء الذين نعيش عندهم، هذا الاختلاط البشع بفاسق، وعلى الأخص – وهذا أسوأ من كل شـــيء – هذا الحجز، هذه المصادرة.. أما أنا، فلن أخون.. أوثر الموت.. وأنت يا بني، إلام تصير؟ ماذا ســيفعلون بك؟ ألم يُضنك الأسف على رحيلنا؟

مارك – أندريه : (في بســـاطة) كلا.. أقسم لك على أنه لا يضنيني. إن لديّ انطباعا.. كيف أنقله إليك؟... منذ أن أصبحت هنا يبدو لي أنني شـــيء مطوِيّ يُنشَر، وأنني ربما وجدت نفسي. تيريزا.

إن لهـــا أصدقـــاء يبحثون عن مدرس شـــاب لتدريس اللغة الفرنسية لأبنائهم. وقد عرضوا عليَّ هذه الوظيفة.. فقبلت طبعـــا. لم أعد أريد أن أعيش طويلا على نفقة أصدقائك. وأنا الآن في الانتظار. وأرجو أن أجد سكرتيرة.

بسكال : الحق أنك لم تعد بالهيئة نفسها.. أينبغي أن أفهم أيضا أن هذه الفتاة...؟

مارك – أندريه : ألا تراها فاتنة؟ ثم إن لها لصوتا...!

بسكال : جميل.. وهكذا، لم نخطئ على الأقل فيما يتعلق بك.

مارك – أندريه : ألا تحقدون عليّ؟

بسكال : ولكـــن كلا، يا بني، فهذا شـــعور وضيع وغبـــي.. أن نحقد عليك! ولكن هذا معناه الرغبة في الحياة نفسها.

مارك – أندريه : إذن ماذا؟

بسكال : فـــي مثل ســـني، يصبـــح ذلك الحقـــد أمرا لا ســـبيل إلى الاعتراف به.. ويبدو أن ولدَي خالتك الصغيرين ســـعيدان جدا، ولاســـيما إيزابيل، أما روجيـــه، فهو حائر قليلا.. إنه يأخذ عني.. ولكنه سيعتاد.

مارك – أندريه : وأنت، يا عمي بسكال، أليس من المسموح به أن نأمل؟

بسكال : كلا، بـــكل تأكيد، كلا... كانـــت والدتك على حق، أكثر مما تســـتطيع أن تتصور هي نفسها.. كان فراري خطأ وعقابه الخـــاص في آن واحد. (إلى إســـتير التـــي تدخل في هذه اللحظة شـــاحبة الوجه ممسكة بخطاب في يدها) إستير! ماذا دهاك! لماذا هذا الوجه الزائغ؟

إستير : خبر مـــروع. روبيـــر.. اختفـــى... ويخشـــى أن يكون قد خُطِف.

بسكال : أأنت مجنونة يا إستير، من الذي خطفه؟

إستير : ولكن، ألا تتذكر؟.. إنه كان ينادي بشيوعية فرنسية...

مارك – أندريه : الشيوعية ستكون واحدة في كل مكان. ولكن من يدريك أنه لم يكن مكلفا برسالة سرية إلى أوروبا الشرقية؟ ولكنني لا أفهم شيئا يا أماه في نهاية الأمر، إنك لم تُحِبّيه قط، وأنت، يا عمي بسكال، لم تكن تستطيع أن تتحمله... أخيرا، ماذا أصابكما؟ أنا لا أفهم...

(صمت – يخرج)

بسكال : (إلى إستير في حزن عميق) ابتهجي، يا إستير. رسا ابنك على بلاد ذات عواطف غير مشوبة. وسيُكْتَب له البقاء.

إستير : ولكن أنت، يا بسكال، ولكن نحن؟

(بسكال يهز كتفيه في حركة تدل على الإعياء)

* * *

الفصل الخامس

ديكور الفصل الرابع نفسه. بعد مضي عدة أيام

المنظر الأول

بسكال، وإستير

(إستير تقرأ فقرة من صحيفة ناولها إياها بسكال. يمكثان هنيهة صامتَين)

إستير : يبدو لي الأمر واضحا بما فيه الكفاية. لقد قتله الآخرون لأنه لا يوافق على مزاعمهم. وكانوا قد رأوا فيه زعيما لمعارضة يمكن أن تصبح معوِّقة.

بسكال : وهذا لا يدهشك؟

إستير : كلا.. أتتذكر أنه قال لي ذات يوم: الاحتلال السوفييتي معناه قرن من الفاشية في فرنسا...

بسكال : أجل... ولهذا ظل فرنسيا حقا.

إستير : أترتاب في ذلك؟

بسكال : إني لأعترف به، هذا فظيع يا إستير. هذا الضوء الذي ينيرنا بالنسبة إلى الأشخاص حين يصبحون في عداد الأموات... افهميني جيدا، إن المثل الأعلى الذي ضحّى أخوك بنفسه من أجله مابرح يفزعني، إنه إدانة لكل ما يدعوني إلى الحياة. وإني لأحطم نفسي حين أقبله.. ولكن أين هي تلك الدوافع التي تدعوني إلى الحياة؟

إستير : أسألك أن تفكر فيه بضع لحظات. أنا أعلم جيدا أنك لم تحبه، وأنا، هل أستطيع أن أقول مخلصة إنني كنت أحمل له عاطفة حقيقية؟ إنني أبحث، وأعود إلى الماضي.. إلى طفولتنا.. لم تكن لنا الميول نفسها قَط. كان مستبدا وعنيفا

في بعض الأحيان. سأفضي إليك بشيء رهيب: لم تكن أمنا تحبه، كان يذكّرها بشقيق لها، ثوري هو أيضا، كل ما في الأمر أنني أتساءل – وهذه فكرة مخيفة – عما إذا كان هذا الحب الفاشل قد تحول إلى بُغض في أغوار قلبه. لقد حدث لي، أوه! نادرا، مرتين أو لعلها ثلاث مرات، أن ألمح في عينيه تعبيرا كان هو تعبير اليأس حقا، وخصوصا حين يحسب نفسه وحيدا.

بسكال : ولكن، هذه المرأة التي كتبتِ إليك؟

إستير : أنا لا أعرفها. ولم يحدثني روبير عنها إلا لماما، ولم يكن يريد أن ألتقي بها. ربما تصور أنني قد أوجّه إليها كلمات جارحة.. وكان في ذلك مخطئا.. بيد أنه لم يكن يعرفني حق المعرفة، إذ لم يكن نفسانيا، وفضلا عن ذلك، كان يخطئ في حكمه على الناس جميعا، كما تعرف. بل كان يرفض أن يتصور قدرتنا على معرفة الآخرين، إنه لم يكن يؤمن بالآخرين، وكان يحتقر علم النفس، وينظر إليه بوصفه علما كاذبا بورجوازيا. ومع ذلك، فقد كان يعيش من أجل الآخرين.

بسكال : ألا تعتقدين أنه كان طموحا؟

إستير : كلا، بإخلاص، كلا، لا أعتقد ذلك. إن ما يملؤني بشفقة لا سبيل إلى احتمالها فكرة أنه كان يؤذي نفسه باستمرار أمام الناس جميعا. كان يُرغم الآخرين على الحكم عليه بأنه منفِّر وعلى أن يُعرضوا عنه. وهذا كان عيبه.

بسكال : والآن، لا نستطيع أن نصنع شيئا من أجله. وحتى لو عاد إلى الظهور أمامنا بمعجزة، فسوف يستولي عليّ مرة أخرى ذلك الشعور بالنفور الذي لا سبيل إلى قهره، والذي أوحى به إليّ دائما.. ولكن، هذه الشفقة التي تستيقظ في نفسي كلما تعاقبت اللحظات، أهي شعور كاذب، شعور يقتضي إعدام من تتجه إليه؟

إستير : يا صديقي..

بسكال : ماذا تريدين أن تقولي؟

إستير : لم أعد أجرؤ.. أخشى أن أتحدث مبكرا جدا قبل أن تنضج تلك الفكرة في أعماق قلبي.

بسكال : يا إلهي.

إستير : منذ لحظة.. بل بعد ذلك قليلا. أولا، دعني أوجه إليك شكري العميق. لقد نجا مارك – أندريه، وكنت على صواب.. أوه! إنها ليست بالنسبة إليّ سعادة غير مشوبة حين أرى أنه عاد إلى الحياة منذ أن أغلق الباب نهائيا على كل ما كان لنا.. لا داعي لأي وهم يا صديقي، مارك – أندريه لم يعد فرنسيا. فهل يصبح يوما مواطنا لهذا البلد؟ هكذا ممكن، ولكننا لا نستطيع أن نكون على يقين من ذلك.

بدأ... أينبغي أن نقول انسلاخه؟ أجل، إنه انسلاخ، تحول إلى صورة جديدة. أرأيت كم تغيرت نظرته؟ إنه يضحك الآن للاشيء، وهو الذي لم يكن يضحك قط... وقد أصبح معي مرة أخرى غايةً في الحنان... وهذه كلها علامات تبعث على الابتهاج.

بسكال : بأي حزن تقررين ذلك!

إستير : ليس في وسعي ألا أشعر بذلك الشعور، ولكنني أعلم أنه مذنب، إنه شعور الأم المتملكة التي لم أكن أريد أن أكونها بحال من الأحوال! وإني لأحاول – بمجهود شاق – أن أخفف من احتضاني له .. وسأبلغ ما أريد. إذ لا بد من ذلك. وحين أقبل مارك – أندريه أمس إلى حجرتي ليحييني تحية المساء، وجدني غارقة في الدموع، واستطعت أن أقنعه بأني أبكي على مصرع خاله.. ولم يكن ذلك حقا كله... ومع ذلك.. من المخيف، يا بسكال. تلك الطريقة التي تتصل بها الأحزان جميعا.

بسكال : أجـل. إنها تصب جميعـا فيما أسـميته، ذات يوم، نقطة الأسى الدائرية.

(صمت)

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ورينيه

رينيه : أظـن أنكم تتحدثـون عن روبير التعس. هـذا مخيف. كل ما أطلبـه منكم هو ألا تتوقفوا طويـلا عند هذا الموضوع في حضـور كارلوس وإينيس.. فلقد رأيت حرجهما عندما فهما أن روبير كان شيوعيا. وهذا أمر طبيعي جدا.. ضعوا أنفسـكم في مكانهما. ولو أن هذا النبأ انتشـر في سـان فيليب، فسوف يجر علينا بكل تأكيد عواقب وخيمة.

بسكال : ولكنك غريبة الشـأن يا رينيه. من الخسـة من جانبي أن أحاول إخفاء أن روبير كان شـيوعيا، وأنه مات في ظروف أحق بأن تُشَرِّفه.

رينيه : هذا، ما لا يعلمون عنه شيئا.

بسكال : الأسباب جميعا تدعو إلى افتراضه.

رينيه : الآن، بعد أن لم يعد عقبةً في سـبيلك، تكتشـف أساسـا عظيما يدعوك إلى إكباره. إني أعرف ما أقول. إن موقفنا صعب بما فيه الكفاية. ولا أسـمح بـأن يفعل أحد ما من شأنه أن يزيده تفاقما. وأضيف أن هذا «الشفرمون» الذي هو وباء...

بسكال : آه! ألاحظت أنت أيضا؟

رينيه : إنه لا يسـعى إلا إلـى إيذائنا. ولو علم بالنبأ، لسـارع إلى إذاعته.

أما كارلوس وإينيس اللذان هما الطيبة نفسها، فلن يتحدثا عنـه أبدا بكل تأكيـد، ولكنكما أنتما أيضـا مذنبان، أنت وهي، لارتكاب حماقة لا سبيل إلى إصلاحها.

المنظر الثالث

الأشخاص أنفسهم، وكارلوس

رينيه : أرجوك يا كارلوس، أسعفني، إنهما لا يريدان أن يفهما أنه لا ينبغـي إشـاعة قصة أخي غير الشـقيق، بأي ثمن. ولا يملك فينا نحن الثلاثة الإحساس بالوقائع، غيري أنا.

كارلوس : بسكال، جئت لأخبرك أنهم سـيحضرون هنا بالميكروفون بعد سـاعة حتى تسـتطيع – دون أن تنتقـل من مكانك – تقديم الإرسـال المخصص للفرنسيين في أوروبا.. وجدتك فـي غاية من الإرهـاق، فبدا لي من المستحسـن أن أوفّر عليك كل إزعاج.

بسكال : هذا شيء لطيف جدا منك، يا كارلوس، ولكنني لست أدري بعد ما سأقوله اليوم...

كارلوس : لسـت قلقا. فلا تشـغل بالك، فأنت تحسـن الارتجال إذا اسـتدعى الأمر. وإليك – من جهة أخرى – هذه الرسـالة التي وصلت إليك من سـان – فيليب بالبريد المسـتعجل. ومن العنوان أعتقد أنها من مدير الجامعة. لا شك في أنها لتحديد الموعد الذي طلبته.

(يمد يده بالرسـالة إلى بسـكال، الذي يفتحها ويقرؤها على عجل)

بسكال : يكاد هذا الخطاب يكون مؤدبا.. إني مندهش.. حين وصلت إلى هنا، كتب إليّ بأسلوب مختلف تمام الاختلاف.

كارلوس : أخشى أن أخمّن تفسير هذا التحول.. ينبغي أن تعد نفسك

لتقديم تفسير عسير إلى المدير الذي قد يكون فظا...

رينيه : (مندفعة) بكل تأكيد... وذلك عقب محادثتك مع رجل الدين ذلك اليوم...

بسكال : حقا؟

كارلوس : لا يمكن أن يكون ثمة شك في هذا الموضوع. إن «الأب ريكاردو» الذي التقيتَه أمس الأول لم يخفِ عني أنه كتب إلى العميد لإشراكه في هواجسه.

بسكال : وماذا بعد! ولكن، هذا حسن جدا.

رينيه : كيف يمكن أن يكون حسنا جدا؟

بسكال : إنـي أحب المواقف المحـدّدة حبا جما. يجب أن أبدأ محاضراتي في غضون خمسة عشر يوما، ولا أسمح لنفسي بأن يطوف أقل التباس بالروح التي ينبغي أن ألقي بها هذه المحاضرات.

رينيه : (إلى كارلوس) هل فهمت؟

كارلوس : يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أن تنتبه..

بسكال : لن يصنعوا مني مُطَهّرا للأدب.

كارلوس : دعني أقل لك إنني ضمنت مشاعرك الكاثوليكية.

بسكال : بأي حق؟

كارلوس : لقد أعطتني مدام لومبيير – منذ عدة أشهر – جميع الضمانات الممكنة، ولما كنا قد فهمنا أنها تكتب على لسانك...

بسكال : هذا احتيال.

رينيه : (إلى كارلوس) أرجو أن تتركني على انفراد معه.. يعلم الله ما سيتهور بقوله.. رحماك. (إلى إستير في جفاء) إن مكانك ليس هنا. لدي انطباع بأنه قد استمد منك تشجيعا إجراميا لا أدري كنهه.

إستير : أنا لم أقل شيئا.

رينيه : عـمَّ تتحدثان خلال تلك النزهات التي لا تنقطع؟ كلا، أوثر ألا تجيبي علي.

إستير : (إلى بسكال) أينبغي علي؟ .. كلا، إنها على حق في نهاية الأمر. وفضلا عن ذلك عندي قرار خطير ينبغي أن أتخذه، ولا بد أن أخلو إلى نفسي.

المنظر الرابع

بسكال، ورينيه

بسكال : لقد وقعت في كمين.

رينيه : الآن، أصْغ إليّ. إن ما يجري هنا أخطر مما تظن. وأنت في سبيلك إلى قطع كل ما وراءك من جسور من دون أن تفكر مليا في المستقبل الذي تعده لنفسك... أقول، الذي تعده لنفسك ولست أدري ربما كانت تراودك تلك الفكرة السخيفة، بالعودة إلى أوروبا.

بسكال : كلا.

رينيه : إذن؟ تتصور ما يحدث لو أنك فقدت كل أمل في العثور على منصب؟

بسكال : هذا سؤال ليس من حقي أن أضعه لنفسي.

رينيه : أنا، مع الطفلين، أستطيع أن أدبر أمري فهنا أناس رائعون...

بسكال : أتتحدثين عن إينيس وكارلوس؟

رينيه : كلا، فقد خيبا أملي تماما. فهي ليست سوى دمية..، وهو...

بسكال : ماذا تأخذين عليه؟

رينيه : (من دون أن تجيب) المسألة لا تتعلق بكارلوس في هذه

اللحظة، بل بنا... فلو تصرفت كشخص غير مكترث وكمجنون، فلن يلومني أحد على انتزاع الطفليْن منك. بل على العكس، سوف يشفق الناس جميعا عليّ.

بسكال : وهذه الشفقة تعجبك؟

رينيه : إن اللاجئين من أمثالنا لا يمكنهم أن يمتعوا أنفسهم بترف الظهور بمظهر الكبرياء الشديدة. وهنا أيضا – ولا أدري إن كان ذلك راجعا إلى اختلاط الأجناس – يبدو الناس جميعا لطافا، متسامحين.

بسكال : ومع هذا كله، من المستحسن ألا نصيح فوق الأسطح بأن لنا أخا شيوعيا.

رينيه : أولا، لم يكن روبير شقيقي... أحسست دائما أنني ابنة أمي أكثر من أن أكون ابنة أبي.

بسكال : عجيب... ثمة شخص لم يُنْطق اسمه بعد...

رينيه : ماذا تقصد؟

بسكال : إستير.

رينيه : فلنبتعد عن هذا الفصل، إذا سمحت. جاءت إستير إلى هنا على الرغم مني، وفي ظروف يتفق أصدقاؤنا...

بسكال : ثم ماذا؟

رينيه : يتفق أصدقاؤنا في الحكم عليها بأنها مشينة.

بسكال : ماذا تقولين؟

رينيه : لن تنكر أنك أرغمتني. وكانت إستير تعلم تمام العلم أنني لا أرغب إطلاقا في اصطحابها.

بسكال : ولماذا تصطحبينها؟ لقد دَفَعَتْ أجر رحلتها ورحلة ابنها.

رينيه : وإني لأتساءل أيضا: كيف كان ذلك؟ أشك شكا قويا في أنك قدمت إليها قرضا من المال.

بسكال : وأين العيب في ذلك؟

رينيه : لقد فُرِضتَ عليَّ إذن بطريقة اعتبرها وقحة.

بسكال : أنت تهذين. وإنما أريد أن أعرف ماذا تعني كلمة مشينة التي استخدمتِها منذ لحظة.

رينيه : مع ذلك الذي لا تفهمه!

بسكال : أوثر ألا أفهم.. أو لعلك تريدين حقا أن أدافع عن نفسي؟

رينيه : أنا، لم أتهمك.

بسكال : أتلمحين إلى أنني في نظر الناس هنا عشيق أختك؟

رينيه : أنا لا أتحدث عن كارلوس وإينيس، ولست بعد على يقين...

بسكال : لا يهمني ما يفكرون فيه أساسا. إنهم أناس من هذه الدنيا وليسوا كائنات بشرية.

رينيه : يا له من احتقار! أتعتقد نفسك من البروليتاريا مثلا؟ إن ما أستطيع أن أضمنه لك أنا، أنك لو واصلت التصرف على هذا المنوال، فستجد نفسك بعد وقت ما حُطَاما، لا تنتمي إلى أي طبقة، طفيليا لا جدوى منه.. وحين أقول طفيليا، ليس طفيليا من يريد.. لا بد من أن تنال الإعجاب، أما أنت فتبعث على النفور.. أنت تسعى إلى أن تكون شاذا. ومادمت تتحدث عن إستير، فسأنقل إليك التحذير الذي بلغني ذلك اليوم. يجب وضع نهاية بأسرع ما يمكن لصلة حميمة يُحْكم عليها بأنها أكثر من مريبة. وبهذا الشرط وحده يمكن أن تُقْبل في سان فيليب. أوه! إنني أعلم جيدا، من يسمعك منذ لحظة يمكن أن يظن أنك قد تنازلت أنت نفسُك عن هذا الكرسي، ولكنني أراهن على أن صيحاتك ومظاهرك الفخمة لا تدل حقا على شيء، وأنك بعد ليلة من السهاد سترجع بلا شك إلى نظرة أقل رومانتيكية للموقف. إني أعرفك، إنك لا تشعر بأي ميل إلى عدم الاستقرار، وما من أحد أشد منك احتياجا إلى الشعور

بأن حياته المادية مضمونة. وأذكر تلك اللحظة التي شاعت فيها ضجة مريبة حول بنك بيريبه الذي كنت من عملائه.. كدت تخرج عن طورك من القلق.

بسكال : وهـذا أيضا!... لقد احتفظت عمدا، وعن تفضيل، بكل ما يمكن أن يكون – في حياتي – موضع احتقار... لماذا؟

رينيه : لي دائما ذاكرة جيدة جدا. ولا أرى ما يدعو إلى مؤاخذتي عليها.

بسكال : من الممكن أن يقال إنك قد وُضِعْتِ على طريقي لكي تضعي خطـا حاقدا تحت الفجوة القائمة بين ما أنا عليه وبين ما أتمنى أن أكونه.

رينيه : لا أحب الأماني. إنها مهزلة يلعبها المرء على نفسه. وأرفض أن أكون مخدوعة. هذا شـيء أشبه بذلك النوع من الحب الأفلاطوني بين إسـتير وبينك.. وأنـا لا أعرف ما ينطوي عليه من شيء مضحك أو شاذ.

بسكال : اسكتي.

رينيه : أذكر أنني عثرت في منزل ريفي قديم على مجموعة «مجلة عَالَمَيْن»، وكانت تضم روايات لإدوار رود. إنك شخصية من شخصيات إدوار رود.

كل ما في الأمر أن الناس أقل سذاجة اليوم مما كانوا عليه في ذلك العصر.. هـذه الغراميات الطاهرة، يعرف الناس ما وراءها..

بسكال : كيف تعرفين أن إسـتير ليست عشيقتي؟ (تنفجر رينيه في ضحكة مزدرية)

إني أكرهك.. أنتِ شقائي.. لقد كنتِ دائما شقائي...

المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، وإستير

رينيه : (إلى إسـتير) أتريدين أن أخبرك بما يسـعى بسـكال إلى إقناعي بـه؟... تخمنـين؟ لعلك في قرارة نفسـك تكونين مسـرورة لو أنه نجح... ولكن لا حيلة لنا في شـيء... (إلى بسكال) أنت لست رجلا، ولم تكن رجلا قط.. وربما كنت في أحسن لحظاتك أكثر قليلا من إنسان.. قد أعتقد هذا...

ولكنـك في حياة كل يـوم أقل كثيرا من إنسـان، وهذا ما يفسر كل شيء.

(تهم بالخروج)

بسكال : لا تذهبي، قبل أن أقول لك – أنا – رأيي فيك... ألا يكفيك أنـك تحايلت للحصـول على رد مـن أصدقائك متظاهرة بأنـك تكتبين نيابة عني وباسـمي... وأتيـت هنا بأمل أن تلتقطي كارلوس كما تلتقط البغيُّ زبونها على الرصيف... كل مـا في الأمر أنك خُدعت.. وهو أيضا على الأرجح، بل هو أولا.. لقد تغيرت يـا رينيه، منذ أيام بيارتيز الجميلة. ولاحظت النظرات التي تبادلها أصدقاؤك أول أمسـية... وتسـتطيعين أن تبحثـي عن ذكر لـه إرادة قوية ليخلصك من ماضيك الثقيل كامرأة شريفة. إن ذلك الماضي يلتصق بجلدك، ويحرقك.. فلم تعودي تتحملينه...

(تخرج رينيه. يترنح بسكال، ويتقدم بضع خطوات في اتجاه الباب الذي خرجت منه، ثم ينهار في مقعد كبير)

إستير : (تنحني عليه) بسكال!

بسكال : (بصـوت خافت) إني حقير.. الوضاعـة معدية، التقطتها كالحمـى.. أو ربما... ربما كانت كامنة فـيّ.. أجل، لا بد أنها كانت بكل تأكيد، كامنة فيّ دائما.

إستير : (في عذوبة) كلا.

بسكال : لا بد أنها ذبلت من اتصالها بي.. ذبلت بكل أشكال الذبول... هذا شيء لا يُطاق...

إستير : (في العذوبة نفسها) لماذا تَشُقُّ على نفسك.. حين أحاول أن أبَرِّئَك؟

بسكال : ليس ذلك في وسعك، يا إستير.. قسيس؟ هذه العبارة البسيطة «مغفورة لكم خطاياكم...» يا لها من معجزة!

إستير : أما أنا، فلا أراها معجزة، بل شيئا يخلو من المعنى... رجل، وليكن مثل الأب ريكاردو، أيملك هذا الحق؟ هذا شيء يندّ عن التفكير.

بسكال : هذه القدرة لا تنتمي إليه هو، فما هو إلا أتعس الأدوات... سأقول لك شيئا فريدا.... هذه الكهنوتية السفيهة، الوثنية، لأنها إهانة للمسيح، تقرّبني منه مثلما يفعل الاضطهاد.. والحقيقة أن هذا اضطهاد آخر.

إستير : (متألمة) لا أفهم..

بسكال : إنها في الواقع حركة للروح شديدة الغموض.. أو أنها بالأحرى كأنها تمهل غريب وراء أقوال هذا الرجل الديني المنافقة، جعلني أعتقد أنني أسمع نداء خفيا إلى ما لا نهاية.. إجابة عن سؤالي...

إستير : سمعت؟

بسكال : لا بواسطة الحواس... هذا شيء لا سبيل إلى التعبير عنه. ربما لم يكن سوى تفكير غير منطوق نطقا متميزا.

إستير : وماذا طلب منك؟

بسكال : ألا أخون.

إستير : ومتى حاولت أن تخون؟

بسكال : (من دون أن يجيب) والأغرب من ذلك، أنه في ذلك الصباح

نفسه الذي اعتقدت فيه أنني أستمع إلى هذا النداء، صادفت مقابلة غير متوقعة، مع راهب شاب حركت هيئته الجديرة بالإعجاب أعمق أعماق نفسي. ومع أنه ليس من عادتي مخاطبة الغرباء، فإنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول له بضع كلمات... ولن تتخيلي صفاء الابتسامة التي أضاءت هذا الوجه النحيل... كانت ابتسامة المسيح.

إستير : ماذا تعرف عن ابتسامة المسيح يا بسكال؟ ثم إذا كان هذا اللطف الإلهي غير المفهوم قد مُنح لك، فكيف تفسر العنف الذي أبديته منذ لحظة مع رينيه؟ أنا لم أسمع الكلمات، ولكنني أستطيع أن أخمن تقريبا..

بسكال : إني أعيدها عليك يا إستير، رينيه هي شقائي. إنها الكائن الذي لم يكف عن جرِّي إلى أسفل، عارضا علي صورة لنفسي هي أشد الصور تثبيطا لهمتي.

إستير : ألا ينبغي علينا أن نكون متواضعين؟

بسكال : متواضعين، بلاشك، لا أذلاء. المذلة تدمِّر وتحطِّم. (صمت) ما أقسى أن أشعر بك – في هذه اللحظة التي ربما أوشك على التيقظ فيها لله – بعيدةً كل هذا البعد، غائبة كل ذلك الغياب...

إستير : إني قلقة، وأنت تعرف جيدا أن هذه الأفكار غريبة عليّ. أتريد أن تقول إنك على وشك الخضوع؟

بسكال : أمعرفتك بي سيئة إلى هذا الحد؟

إستير : ولكن ماذا إذن؟ لا تجب عليّ بعد. إذ ينبغي عليّ أيضا أن أصارحك بأن أخي التعس قد ترك طفلا صغيرا في الثالثة من عمره. وهذه المرأة التي كان يعاشرها، فهمتُ من بعض العبارات التي أفلتت منه، أنها لا تهتم بذلك الطفل...

بسكال : (بصوت مختنق) أتريدين العودة إلى الوطن؟ أتريدين أن تضعي المحيط بيننا.. إنني لن أعود إلى أوروبا.. فأنا لا

أعتقد...

إستير : طبعا، إنك لا تستطيع أن تترك رينيه والطفلين.

بسكال : ليس ذلك بسببهم.. بل إن السبب أكثر من حيثُ عدم التميز، ولكنه أيضا أكثر طغيانا.. إذا عدتُ إلى فرنسا، فماذا أفعل هناك؟ استئناف كتابة أعمدتي؟ التأليف... لم يعد لهذا كله أي معنى. الدخول في الصراع؟ الالتحاق بحزب، الانضمام إلى مالرو وأصدقائه؟ هذا مستحيل. أما فيما يتعلق برفاق أخيك، فأنا لا أستطيع أن أقبلهم إلا بشرط ألا أراهم وألا أسمعهم. لقد نذرت نفسي لعدم الفاعلية، وأنا أعرف ذلك الآن. يجب أن أعترف بذلك في تواضع مطلق. ولكن، ربما كان المرء يستطيع ابتداء من هنا أن يصاعد «نحوه»، وأن يكون قريبا «منه»... (إلى مارك – أندريه الذي دخل) تعال يا بنيّ، عندي كلمة أخرى أريد أن أقولها، كلمة مُقَدَّرة لك.

مارك – أندريه : (منزعجا) ما هذه؟

بسكال : لا تتخذ هذه الهيئة المذعورة. لا شيء هنا ينبغي أن يزعجك، بل على العكس أعتقد... أتتذكر أنك حدثتني منذ أشهر عن رجل، والد أحد أصدقائك، وكان يقول: لست أدري ما يمكن أن يصنعه الحدث بي، ربما جعلني رخوا أشل. ولكني أحسب أن الرب لن يتخلى عني، وأنه سيجنبني السقوط الأعظم...

مارك – أندريه : ماذا إذن؟

بسكال : وسألتني إن كنت أستطيع أن آخذ هذه الأقوال لحسابي، فأطرقت برأسي.. بيد أن شيئا ما قد تغير. فالخطاب الذي سأكتبه بعد لحظة إلى مدير جامعة سان فيليب سيخلق موقفا محددا تماما التحديد. وهذا الامتناع عن الإذعان لمطالب يستنكرها ضميري، أملاها عليّ حقا الرب الحقيقي.. ومن هذا اليوم أعترف به، وألتزم بالاتجاه نحوه، ويبدو لي في تسامحه أو في كرمه.. إذ لا يمكن أن يكون ثمة رب بلا شرف.

مارك – أندريه : ماذا أصابك، يا عماه؟

بسكال : لا شيء، دوار... لست اليوم على ما يرام. إني أقبل إذن عدم الاستقرار المطلق، أقبله هنا كما قد كان ينبغي علي أن أقبله هناك... المكان لا قيمة له...

كارلوس : (داخلا) رجل الإذاعة في الحجرة المجاورة مع الميكروفون. أتشعر بأنك في حالة طيبة بحيث يمكن أن تقدِّم البرنامج؟

بسكال : أجل، أجل، يجب أن أفعل ذلك، هاأنذا قادما..

(يخرج من باب المؤخرة الذي ظل مواربا. نسمع في غير تميز ضجة الاستعدادات)

مارك – أندريه : أتبكين، يا أماه؟ وأنا على هذه الدرجة من السعادة.

إستير : كل هذا لا سبيل إلى التعبير عنه.

بسكال : (بصوت قوي) يا أصدقائي في فرنسا.. طلبوا مني أن أتحدث إليكم مرة كل خمسة عشر يوما، لكي أقول لكم: كيف أننا نحن المهاجرين، نحن الهاربين، نرى فرنسا...

مارك – أندريه : لقد قال «الهاربين»!

بسكال : في مأساة لكورني عفّى عليها النسيان بضعةُ أبيات شهيرة، وجديرة أيضا بالإعجاب، يعلن سرتوريوس – وهو جنرال متمرد في إسبانيا – أنه هو الذي يجسد روما الحقيقية فيقول:

«لم أعد أسمّي روما أرضا تحوطها الأسوار، تملؤها العادات بالمآتم، فهذه الأسوار التي كان مصيرها أبدع ما يكون في الماضي.. لم تعد سوى السجن، أو بالأحرى القبر: ولكن لكي تُبْعث من جديد في قوتها الأولى انفصلت تمام الانفصال عن الرومان المزيفين، ولما كنت أملك حولي الآن كل دعائمها الحقيقية فإن روما لم تعد في روما، لكنها تكون كلها حيث أكون».

يا أصدقائي، هذه هذه الفكرة الباطلة، وهذا ما أريد أن

أستصرخكم إياه اليوم. أخطأنا حين رحلنا.. وكان ينبغي أن نبقى، وأن نناضل في أماكننا. والوهم القائل بأننا نستطيع أن نحمل الوطن معنا لا يمكن أن يولد إلا من الغرور ومن أشد أنواع الاعتداد بالنفس حمقا. وأنتم يا من قد تترددون حيال خطر الغد، أستحلفكم بالله أن تمكثوا، وإذا كنتم لا تشعرون بالقوة.. إذا كنتم لا تملكون القوة...

(يترنّح، يتهاوى على الأرض. تندفع إستير نحوه، وفي هذه اللحظة يظهر راهب شاب عليه سيماء الزهد، وحين يهمون باعتراض طريقه، يخاطبهم في رفق)

الراهب : سيدتي، دعيني أذهبْ إليه. أنا أعلم أنه ينتظرني.

(ستار)

* * *

تعليق على مسرحية
«روما لم تعد في روما»

بقلم المؤلف

(هذه الصفحات مأخوذة من محاضرة ألقيت على مسرح هيبرتو في ١٨ مايو ١٩٥١. وقد ظهرت في مجلة «رجال وعوالم» Hommes et Mondes تحت عنوان «المشكلات الحقيقية في مسرحية روما لم تعد في روما»):

أريد أن أفحص في هذه الصفحات القلائل الاعتراضات الرئيسية إلتي وُجِّهت إلى مسرحيتي الأخيرة: «روما لم تعد في روما».

وينبغي أن أقول إنني كنت مندهشا حين اكتشفت أن بعض النقاد يهاجمون ما حلا لهم أن يسموه – على نحو جزافي تماما – بمصادرة المسرحية، ومعنى هذا في أذهانهم أن مسألة «الرحيل» لا توضع اليوم في بلادنا. ويكفي أن تحمل ردود فعل الجمهور لهذا التوكيد الغريب أجلى أنواع التكذيب. وما كان من الممكن أن تكون المناقشات على مثل هذا الاحتداد لو لم توضع المسألة أصلا، وينسحب القول هنا على أناس ينتمون إلى أوساط اجتماعية أشد ما تكون تباينا. وفضلا عن ذلك، كيف يمكن ألا يوضع هذا السؤال؟ إني أسلِّم جدلا مع «تييري مونييه» بأن الموقف العالمي «في الآونة الحاضرة» لا يبرر تبريرا مطلقا بالنسبة إلى الفرنسيين ذعرا كالذعر الذي رزحت تحته زوجة الشخصية الرئيسية في الرواية، ومع ذلك، يكفي أن نقرأ في أي صحيفة يومية التفاصيل الدقيقة التي تُقَدَّم لنا عن علاقة القوات العسكرية القائمة لكي نعترف بأن في هذه العلاقة ما يبرر، عند كل من يعرف القراءة، حالة من القلق يمكن أن تؤدي مباشرة إلى ذلك الذعر. وماذا نقول عن الشواهد التي تصل إلينا يوما بعد يوم عن الموقف الدولي؟ وحتى مع التسليم بأنه ينبغي الحكم اليوم على هذه المخاوف بأنها متطرفة، فمن الواضح أنه من الممكن أن يقع في بضعة أشهر أو حتى في بضعة أسابيع حدث في الشرق الأوسط أو الأدنى يعمل على تضييق الكلّابة التي نجازف بالانسحاق فيها. مثل هذه الأحداث أمور قابلة للتنبؤ بها بحيث يتوقعها القلق: ولنتذكر أن القلق في جوهره توقع محموم.